

حديث القرآن والتاريخ

عن غوروش

=====

لنا أن نقول الآن أن مسألة لقب " ذى القرنين " قد حلت لها ثمة ، وليس ثمة ريب في أن تصور ذى القرنين لغوروش كان قد وجد ، وأن غرضنا النظر عن الشهادات الصحيحة التي يشهد بها العهد المتيق ، فإن تمثال غوروش نفسه لشهادة حسنة ملموسة على صحة ما نقول . وفي الآن أن نرى هل الحلة التي فصلها له القرآن توافقه أم لا ؟ ونرى أنها توافقه كل الموافقة .

وقد سبق لنا في بدء المقال أن أئنا على خلاصة ما قاله القرآن في شأن ذى القرنين ، ويحسن بنا أن نعيد النظر إليها مرة أخرى .

أنا مكا له نسي الأرض :

١ - أن أول ما وصف به القرآن ذا القرنين هو قوله " أنا مكا له في الأرض وآتيناه من كل شيء سهيا " (٨٤) . أي أننا منحناه السلطان والتثبيت في الملك ^{وحيات} ^{وحيات} جميع الوسائل والتمعدات التي كان يحتاج إليها لتدعيم حكمه واتساع فتوحه ومن أسلوب القرآن أنه كلما ينسب نجاح شخص وسلطانه إلى الله مباشرة - كما نراه في هذه الآية - يريد بذلك أمرا عظيما قد وقع على خلاف المجهود ولذلك صار هبة من الله ورحمة خاصة من لديه . فمثلا نرى في سورة يوسف

أنه يقول " وكذلك مكنا ليوسف في الأرض " (٥١: ١٢) " أي جعلناه
يوسف متمكنا في أرض مصر وذلك لأن يوسف عليه السلام وصل إلى حكم مصر
بطريقة عجيبة غير معهودة ، ولذلك نسب إلى الله ، ليبين أنه كان من نعم
الله الخصوصية عليه أن أخرجه من السجن وأجله على عرش البلاد . ولما
كان أسلوب الكلام عن ذي القرنين نفس هذا الأسلوب كان لزاما أن يكون وصول
ذي القرنين كذلك إلى مقام الملك والسلطان في ظروف غير عادية فيكون منحة
خصوصية من عند الله .

وإذا نظرنا من هذه الناحية إلى غوروش ، نجد كأن مصورا صور ذي القرنين
صورة مطابقة للأصل تماما ، فقد بدأ حياته في ظروف أحاطت بها الحوادث المحيرة
للعقول ، حتى سبكتها في قالب أسطورة : انه لم يولد بعد . الآن الآن والد أمه
أصبح عدوا لدودا له ، يريد القتل به ولكن الرجل الذي انتدبه لقتله ، امتلا
قلبه عطفًا وحنانًا عليه ، فاخطفه من براثن الموت . ثم انه ينشأ في الغابات
والصحارى والجبال ، ويمشى عيشة الرعاة السهليين الجهوليين فينما هو كذلك
إذ تتغير الأحوال بفترة ، وتقوده إلى ساحات البد والعمل ، مشرعا عن ساعديه
فيخلو له عيش مادي بدون مزاحمة ، لا يرب أن سير الحوادث الحياة المادية
لا يكون هكذا . انه حقا أمر فذ ، نادر ، عجيب !
وآتيناه من كل شيء سبيلا :

ثم قال " وآتيناه من كل شيء سبيلا " أي وهبناه كل الوسائل للعمل والنجاح .

انظر كيف تطابق هذه الكلمات من الآية الأمر الواقع ؟ ان الشاب الذي كان بالأمس راعيا مجهولا ، قد استوى اليوم على عرش الملك ، وملك جميع ما يحتاج اليه من وسائل العمل بدون حرب ونضال ! يقول مؤرخو اليونان ان جميع قبائل فارس قد انشقت على طاعته من تلقاء نفسها ، وظهرت في التاريخ أول مرة المملكة الفارسية المماسة المتحدة . ثم احتشدت له جيوش عظيمة لم تملكها مملكة من قبل .

المهمة الأولى الفريسية :

٢- ثم ذكر القرآن لدى القرنيين ثلاث مهمات ،

كانت الأولى منها الى " مغرب الشمس " والفرض الواضح من " مغرب الشمس " الجهة التي نرى الشمس تغرب نحوها ، أي جهة الغرب ، وليس معنى ذلك مكان غروب الشمس الحقيقية ، اذ لا يوجد ولا يمكن أن يوجد مكان كهذا . وان كل اللغات لتعبر عن الغرب والشرق بـ " مغرب الشمس " وـ " مطلع الشمس " ولجد في العهد العتيق كذلك تعبيرات كهذه ، فنقرأ مثلا في صحيفة زكريا " يقول رب الجموع اني أنجى شعبى من البلد الذى تطلع منه الشمس ، ومن البلد الذى تغرب فيه الشمس " (٨ : ٧) ، أي أنجى بنى اسرائيل من مصر وبابل ، اذ مصر لفلسطين بلاد المغرب ، وبابل بلاد المشرق . هذا أمر واضح لا يحتاج الى البحث ، الا أن أمرا جليا كهذا أصبح مقيدا لولع المفسرين بالمجائب ، فتوهموا أن ذا القرنيين وصل الى المكان الذى تغرب فيه الشمس حقيقة !

والحاصل أن مهمته الأولى كانت الى الغرب ، ولا ريب أنها كانت مهمة لهداياها ، لأنك ان مشيت من اهران الشمالية الى آسيا الصغرى ، تكون قد مشيت نحو الغرب تماما .

وقد رأيت أننا أن غوروش ما كاد يضع تاج فارس ومادا على رأسه ، حتى فاجأه

ملك آسيا الصغرى ، كروسس ، بالجهم ولد تكونت مملكة آسيا الصغرى التي عرفت باسم ليديا ، في القرن السابق للحوادث التي نحن بصددها ، وكانت عاصمتها مدينة سارديز () . ولقد سبقت حروب بين مادا وليديا قبل ارتقاء غوروش القوي ، وأخيرا صالح والد كروسس ، جد غوروش ، استياغس ، ولأجل تصميم الاتحاد ، تظاهرت الأسرتان المالكتان ، ولكن كروسس داس كل هذه الملائقات والقربات حين كبر عليه أن تنشأ إمبراطورية عظيمة باتحاد فارس ومادا تحت زعامة غوروش الناجحة ، فحرز أولا حكومات بابل ، ومصر واسبارتا عليه ، ثم استولى باغارة فجائية على بلدة بتريا () الواقعة على الحدود .

فاضطر غوروش إلى رد سيف المهاجم إلى نحره ، فخرج من عاصمة مادا ، هـمـمـا متانا (همدان) وانقض كالصاعقة على حصنه ، ولم يطل النضال ، بل سقطت مملكة ليديا كلها ساجدة أمام قدميه بعد مومتين : بتريا وسارديز !

وقد أتى هيروdotus على تفاصيل هذه الحروب ، وهي ممتعة ، فقال ، كان انتصار غوروش سهيا جدا لم يتوقعه أحد ، فما مضت على معركة بتريا أربعة عشر يوما الا وخضعت عاصمة ليديا المنهكة ، ووقف ملكها ، كروسس ، أسيرا بين يدي الفاتح ! فأصبحت آسيا الصغرى كلها من بحر الشام إلى البحر الأسود خاضعة لغوروش ، ولكنه مازال يتقدم ويتوغل ، حتى بلغ آخر المغرب ، أي إلى ساحل البحر . وهنا — طبعاً — وقفت أقدامه ، كما وقفت بعد اثني عشر قونا أقدام موسى بن نبييـر على الساحل الشمالي من افريقية .

واجتاز غوروش من هـمـمـا متانا إلى ليديا ألفا وأربعمائة ميل وكان لا يقدر على المشي فوق أمواج تلهجره فوق ، فإذا هو يرى الشمس تغرب في عين الخليج الساحلي . وكان له هذا المقام بلا ريب مغرب الشمس أي نهاية المغرب .

وجدها تغرب في عين حمئة ووجد عندها قوما :

لنضع خريطة الساحل الغربي لآسيا الصغرى أمامنا . نرى فيها معظم الساحل قد تقطع في خلج صغيرة . لاسيما على مقربة من أزمير ، حيث اتخذ الخليج صورة عين . كانت سارديز على مقربة من الساحل الغربي ، ولا تبعد كثيرا عن أزمير الحاضرة . فلنا أن نقول أن غوروش لما تقدم بعد استيلائه على سارديز ، وصل من ساحل بحر ايجه الى مكان قريب من أزمير ، ورأى الساحل قد اتخذ صورة تشبه العين ، وكان الماء قد انكدر من حول الساحل ، فرأى الشمس تغرب مساء في هذا العين . هذا هو ما مر عنه القرآن بقوله " وجدها تغرب في عين حمئة " أى انه تراءى له كأن الشمس تغرب في بقعة كدرة من الماء .

ومن المعلوم أن الشمس لا تغرب في مكان ما ولكلك ان وقتت على ساحل بحر ، لرأيت الشمس كأنها تغرب بعيدا بعيدا في البحر .

المهمة الشرقية :

٣- وكانت مهمته الثانية الى مشرق الشمس ، أى في جهة الشرق . فهيردوتس وتى سيار كلاهما يذكran هذه المهمة الشرقية التى قام بها غوروش بعد فتحه لهدا ، وقبل استيلائه على بابل ، فقالا " ان طفيان بحفر القبائل الهجيرة للمحاربة حلوسه على القيام بهذه المهمة " .

وهذا مطابق لما قاله القرآن " حتى اذا بلغ مطلع الشمس ، وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا " أى أنه لما وصل الى نهاية الشمس ، رأى الشمس تطلع على قوم ليس لديهم ما يحترقون به عن قتلها ، يعنى أنهم كانوا من القبائل الرحالة التى لا تسكن المدن ولا تبغى لها البهوت .

من كانت هذه القبائل الرحالة ؟ يظهر من بعض ما صرح به مؤرخو اليونان أنها كانت قبائل يكتسها ، أى بلغ ، ولو نظرنا فى الخريطة لوجدنا " بلغ " بمثابة الشرق الأقصى لآيران ، لأن الأرض بعدها ترتفع وتسد الطريق ، والظاهر أن قبائل هندوسها كانت أخذت تسمى فى القساد على حدوده الشرقية ، فقام من مكانه حتى وصل بلغ فاتحا ، والمقصود من هندوسها ، البلاد التى تسمى الآن بتركمان وبلوخستان .

المهمة الثالثة الشمالية وسد بلجج وأجج :

١ - وقام بهجوم ثالث على بلاد جبلية كانت تغير عليها من ورائها بأجج وأجج وهنالك بنى السد . كانت هذه مهمة الثالثة ، وصل بها ، تاركا على يمينه بحر الخزر ، الى جبال القوقاز (حيث وجد مضيقا بين جبلين منها .

ذكر القرآن هذا الخير قائلا " حق اذا بلغ بين المدينين ، وجد من دونهما قوما لا يكادون يفقهون قولا " ، أى أنهم كانوا جبلين متوحشين ، حرموا من المدنية والعقل والفهم .

والمقصود بمدينين ، مضيق فى جبال القوقاز . واثبت تجد على يمين القوقاز بحر الخزر الذى يحد طريق الحافة الشرقية منها ، وعلى اليسار البحر الأسود الذى يحد طريق الحافة الغربية ، وتسمى فى الوسط سلسلة جبالها الشاهقسة التى صارت جدارا طبيعيا ، فلم يكن هنالك منفذ للمهاجرين من الشمال الا مضيق وسطى فى هذه الجبال ، يجتازها المهاجرون ويشتون للفتارات على البلاد الواقعة وراءه . فهى غروب فى هذا المضيق سدا حديديا ، وأقفل به الطريق على المتمردين ، ولم يأمن أهل سهل قوقاز وحدهم بهذا السد بل أصبح السد بابا مقلدا منها لسلامة سائر بلاد آسيا الغربية ، فأمنت جميع المصوب الواقعة فى آسيا الغربية وفى مصر من جهة الشمال .

انظر الخريطة • نجد آسيا الغربية تحتها • بحر الخزر فوقها • والبحر
الأسود على يمينها • وقد سدت جبال القوقاز ما بين البحرين • فهذان البحران
وسلسلة جبال القوقاز • أوجدت سدا طبيعيا يمتد الى مئات الأميال • ولم يكن هناك
خلل في هذا الجدار الهائل • ينفذ منه غموب الشمال الا ذلك الضيق • فسمد
غوروش اليه وقطعه ببناء سد حديدى لا يتصلق عليه ولا ينقب فيه • فكان السد بمثابة
باب قد أحكم أقاله بين آسيا الغربية والبلاد الشمالية •

أما القوم الذين وجدهم ذو القرنين هنالك • وكانوا خلوا من المثل • فهتمل
أن يكونوا القوم الذين ذكرهم اليونان باسم " كولش " وذكروا في لوحة داربستوش
باسم " كوشيا " • هؤلاء الذين شكوا الى غوروش هجمات بأجج ومأجج • ولما
كانوا مجردين من الحضارة وصفهم القرآن بقوله " لا يكادون يفقهون قولا " أى لا
يلهمون الكلام •

أوصاف ذى القرنين الأخلاقية في القرآن :

• - ولأن تانى أماننا أوصاف ذى القرنين الأخلاقية التى ذكرها القرآن • فأولها
عدله وجهه لوجهه • لنرى الى أى حد ينطبق هذا الوصف على حياة غوروش ؟
يخبر القرآن أن الله قال له فى شأن الذين وجدهم فى الغرب : " أما
أن يعذبهم وأما أن تتخذ فيهم حسنا " • أى أصبح هؤلاء فى قبضة يدك
فلك أن تعاقبهم أو تعاملهم بالحسن •

لاشك فى أن هؤلاء كانوا الشعب اليونانى فى ليديا • حاجته ملكهم
كرويسس • بدون حق نامها اليهود والقرايات • ولم يكتف بهجومه • بسبل
حرق عليه جميع الدول القوية المماصرة • ولأن بعد أن خاب سعيه • وعاد
كبد • فى نحره • كان لغوروش أن يعاقبه على سوء عمله • ولو فعل ذلك

لما عوتب فيه ، لأنه كان له الحق في ذلك . هذا هو الأمر الذي عبر عنه القرآن بقوله : " أما أن تعذبهم وأما أن تتخذ فيهم حسنا " .

فماذا فعل ذو القرنين ؟ انه قال : بل أعاملهم بالحق ، لأنى لست من الذين يميلون الى الظلم ، " أما من ظلم فسوف نعذبه ^{ثم يرد الى ربه فيعذب} عذابا نكرا ، وأما من آمن وعمل صالحا فله جزاء الحسنى ، وسنقول له من أمرنا يسرا " (١٨٨٧) ، أى لا أعاقبهم على ما سبق لهم من الشر ، بل أعفو عنهم . أجل . من يأت بمتكر بعد هذا (١) فسينال جزاء عمله ، ثم يرد الى الله ليحاقيه بما هو أشد وأدهى ، وأما من يحصل الخير ويطلع أمرى ، فأجزئه بالحسنى . هذا هو اجمال ما فصله مؤرخو اليونان من سيرة الرجل ، وقد قبله مؤرخو العصر الحاضر كحقيقة تاريخية لا مراء فيها .

وقد اتفقت كلمة مؤرخى اليونان على أن ما فصله غوروش بعد فتحه لبديا لم يكن العدل السراج فحسب ، بل كان أكثر من ذلك . كان كله سحابة ومرحمة وكربا ونبلا . فلو عاقب أعداءه ، لكان ذلك عدلا لأنهم كانوا جناة مجرمين ولكنه لم يقف عند حدود العدل ، بل صعد الى المقام الأعلى من الانسانية الفاضلة .

يقول هيروdotus : أمر غوروش جنوده بأن لا يرفعوا السلاح على أحد غريب المحاربين من الأعداء ومن يخضع رحمه منهم فلا يقتلوه . أما كرويس ، الملك المنهزم ، فأمر فى شأنه أن لا يؤذيه أحد ، حتى ولو هاجمه بملاحه . وقد أطلع الجيش أمره طاعة تامة ، حتى لم يشمر عامة الأهالى بولايات الحرب ^{الحرب} تغيب

الملك والملطان ، ولم تتغير حالة الأهالي .

وهنا يجب أن لا ننسى بأن انتصار غوروش كان هزيمة منكرة لآلهة اليونان ، لأنها لم تقدر على صون طابرها الخاص ، كرووس من المحنة الكبرى .

قال المؤرخون ، استخار كرووس الآلهة ، قبل اقتداعه على الهجوم ، وإن هاتف " دلفي " قد بشره بالفتح الجين ، ولما اتمكت الآلة وانكسر كرووس ، استأب اليونانيون ، فأخذوا يؤولون ويحاولون أن يجعلوا من هذه الهزيمة الشبهة فتحاً دينياً لآلهتهم . فقد روى هيرودوتس ما قاله الناس في ليديا بعد اندحار ملكهم فزعوا أن هاتف دلفي لم يخطئ وإنما أخطأ كرووس في فهم جوابه لتحسب الحوس . لأن الهاتف كان قد قال له " أن هاجم كرووس الفرق ، فبدمر ملكة عظيمة " أى أنه يقضى بهجومه على ملكة المصطبة نفسها ، ولكنه أساء الفهم ، فظن أن الهاتف بشره بانتهيار الملكة الفارسية .

وكذلك زعموا أن غوروش لما أمر بإحراق كرووس فوق مصطبة الحطب ، تذكر كرووس ، وهو فوق المصطبة المشتعلة بالنار قول فيلسوف يوناني له فأخذ يتمتم وقد أخبروا غوروش بذلك فتأثر به أيما تأثر وأمر باطفاء النار حالا ، ولكن النار كانت قد تأججت وهجز رجال الملك عن اطفائها ، فنادى عند ذلك كرووس الآلهة " أبولو " وعلى رغم أنه لم يكن على السماء غيم ، فقد أخذ الصطر ينهمر ، فأنطأت النار في لحظة من البصر ، وأنقذ الآلهة حياة كرووس بعد أن عجز عنه كل البشر !!

هذه هي مزاعم القوم ، ولكننا حين نرجع إلى ما صرح به هيرودوتس وزيونفسين نعلم الحقيقة . فقد قام كرووس بهجومه بعد أن تقوى قلبه ببشارة آلهة اليونان وقد اشتهرت البشارة قبل بدء الحرب ، فأراد غوروش أن يبطال ما اعتقده القوم ،

ويرى أن الذين اتغذوهم آلهة ، لا يستطيعون لهم نصرا ، حتى أنهم لا يقدر
على انقاذ من أحبه وشروه بالفتح من الاختراق وهو حي ، ولذلك أمر غوروش أولا
أن يقدموه على منطبة الحطب ، ويشعلوا النار فيها ، ليرى الناس بأعينهم
أن آلهتهم لا قدرة لها ، وأنه ليست هنالك معجزة تنقذ ملكهم من النار ، بل
صير رمادا تذروه الرياح . فلما تجلت هذه الحقيقة للعيان ، أطفئت النار بأمر
الملك ونجا خصمه المكمور من الهلاك . وأن معجزة " ابلو " المزعومة فسق
أسطورة اليونان لتشير صراحة الى الحقيقة التي أراد غوروش اثباتها بملكه ، ولذلك
حاول القوم نقضها باختراع هذه المعجزة الواهية الكاذبة .

جاء في القرآن أن ذا القرنين قال : " سنقول له من أمرك . أي
إن أحسن القيم ، فيرون أنه ليس في معاملتي ما يشق عليهم أو يحزنهم . وقد
شهد مؤرخو اليونان بأن معاملته كانت كما ذكره القرآن ، فقد كان هو للبسلاء
المملوكة كله عطايا ورحمة . وقد نجاهم من كل ما كانوا يفتنون تحته من الخسائر
الثقل ، والفرائب الباهظة التي كان الطوك في ذلك العصر يفرضونها على الرعية .
وقد فتح بسر أوامر غوروش ورحمة قوانينه دورا جديدا للرخاء ورفد العيش للناس
قائمة .

غرائب غوروش العامة :

٦ - هذه كانت معاملته في مهنته الفربية . أما كيف كانت عادته ومخائليه ؟
هناك شهد به مؤرخو اليونان في شأنها ؟ وإلى أي مدى تطابق هي ما ذكره القرآن
فيها ؟

لا ينبغي لنا أن ننسى الأمر الواقع ، وهو أن المروحين الثلاثة الذين كتبوا عن غروش ، لم يكونوا من قومه ، ولا من أبنائه ، ولله ودينه ، بل كانوا من اليونان ليس هنا فحسب بل لم يكونوا من أصدقائه وحبيه ، فقد هزم غروش ليديا وهزيمة ليديا كانت في الحقيقة هزيمة لقوة اليونان ، والحضارة اليونانية ، ولدين اليونان . ثم غلقه دارايوش وأردشير ، فأغارا على بلاد اليونان نفسها . وهكذا تولد المصداق بين الشعبين وتمكن .

ثم إن هؤلاء المروحين الثلاثة ألفوا كتبهم في عصر أردشير أو بعده ، أي في العصر الذي اشتعلت عواطف اليونان القوية فيه إلى آخر حد ، وأخذ شعسراء اليونان يكتبون أشد التشبيلات المدائنية ضد الفرس ، وهي موجودة إلى يومنا هذا . فما كان ينتظر في مثل هذه الظروف المدائنية من رجل يوناني أن يثنى بأناشيد المدح لعدوه شعبه اللدود ، ويطلق العنان لقلبه فيجري بالثناء عليه . ومع كسل ذلك نرى كل واحد من المروحين الثلاثة يعترف بمذلة غروش الخارقة للمساواة ويفضائه الأخلاقية الفذة .

وهذا دليل قاطع على أن محاسن غروش كانت قد اشتهرت اشتهارا ما كسان يمع أحدا معه أن ينكرها أو يماري فيها ، حتى ولو كان من أكبر أعدائه فقصده شهدت بها الأعداء كالأصدقاء على سواء . ولله در من قال :

وطيحة شهدت لها ضراتها
والفضل ما شهدت به الأعداء

ويقول هيرودوتس : " كان (غروش) ملكا كريما ، جوادا سخيا للغاية . ليسم يكن حريصا على جمع المال كغوره من الملوك ، بل كان حريصا على الكرم والعطاء . يبذل المداين للمحتاجين ، ويحب كل ما فيه خير البشر . "

ويقول زينوفن : " كان ملكا عاقلا ، رحيفا . اجتمعت فيه مع نبل الملوك وفضائل الحكماء . همته تفوق عظمتهم ، وجوده يغلب جلالته ، خدمة الانسانية شمساره . "

ممثل المداد للمطلوعين ديدنه . حل فيه - مكان الكبر والمجيب - التواضع والسماحة

بروز شخصية غوروش :

٧ - وأظهر ما نجد في صفحات هؤلاء المؤرخين ، شو رفعة شخصية غوروش الفسدة
فقد أجمعوا على أنه لم يكن من نبتة عصره ، بل شخصاً فذاً ، وأنه سبق خلق عصره
لم يعلمه معلم ، ولم يربيه حكيم ، ولم ينشأ في بلد متحضر ، وإنما كان ربيب الفطرة ،
وسبق أهدى الحكمة الأزلية ، ضلت الأيام الأولى من حياته في حجر الصحارى وكثلسف
الجبال . كان من رعاة الصحارى الشرقية من فارس فواجبها ! لما برز هذا الراعسى
أمام أعين العالم ، كان أكبر مظهر للحكم ، وأعظم شخصية للحكمة والفضيلة !

لقد نشأ الاسكندر الأكبر على يد أرسطاطالوس ، ولاريد أنه كان فاضلاً عظيماً ،
ولكن هل فتح راحة من زوايا الانسانية والأخلاق ؟ لم يوجد لغوروش أرسطاطالوس
يعلمه ، بل أنه عرضاً من المدارس البشرية ، نشأ في مدرسة الفطرة مع ذلك لم يكتف
بتسخير البلاد كالاسكندر ، بل سخر ملكة الانسانية والفضيلة كذلك .

ان عمر فتوح الاسكندر لم يجاوز عمر الاسكندر نفسه ، ولكن المعادل التي شهدت
فتوح غوروش ، صارت حوادث الدهر القليلة قرنين كاملين دون أن يصبها تلسف .
ان الاسكندر لم يلفظ أنفاسه الأخيرة ، حتى تخطمت أوجال ملكته المفتوحة ، ولكن
غوروش عندما انتقل من الدنيا ، كانت ملكته مستعدة للتوسع والتمكن . لم يكن ينقص
فتوحه الا مصر ، فأتم النقص ولده ، باستيلائه على مصر الخالدة ، وبرزت بعدد بضع
سنين تلك الامبراطورية العالمية التي لم ير العالم المتيق ضلها قط ، فهماست
سلطانها على ثمانية وعشرين قسراً من قارتى آسيا وأفريقيا ، وكذلك على مصر وكان على
عرشها خلف غوروش ، يحكمها وحده بلا منازع !

كانت فتوح الاسكندر ، فتوحاً مادية ، بينما فتوح غوروش عملت الجسد والروح معاً .
تولج الأولى رأسها ، فلا تقدر على البقاء ، بينما تبقى الأخرى غير متزعزعة !

اعتراف المؤرخين المصريين :

وقد اعترف بهذه الحقيقة محققوا التاريخ في مصر الحاضر . فهذا المستر غرندي (GBERYNDY) أستاذ جامعة اكسفورد ، ولاختصاصه الثقة في التاريخ القديم ، والذي ناله تأليفه " الحرف الفارسية الكبرى " قبولاً عاماً ، يقول فسي مقال له :

" لقد كان نجاحه ، نجاحاً عظيماً . كان قبل اثنتي عشرة سنة أميراً مجهولاً لامارة مجهولة . فأننا هنا نراه قد خضعت له جميع تلك البلاد التي كانت مراكسز العداوة للشعوب الكبيرة السابقة . فهذه البلاد التي ادعت ملكية الأرض في أيامها لم يمد أحد منها يدها الآن على ادعاء الزعامة لنفسه ، فمن بلاد ساراغون ، الملك الأساطيري للملكة الأكاديمية الى بلاد بخت نصر ، امبراطور بابل ، وجدت كلها ليهنتا الامبراطور الفاضل الجديد . "

" انه لم يكن فاتحاً عظيماً ، بل حاكماً كبيراً كذلك . وإن الشعوب لم تقبل الدور الجديد فقد ، بل رحبت به أيضاً . ففي العنين المشرقة الأخيرة من حياته يمد فتح بابل ، لم تحدث ولا ثورة واحدة في ملكه الواسعة . أجل كانت رغبته تهايه ، ولكن لا تخفى قسوته ، ان حكيمته لم تعرف عقاب القتل والمسلح والنهب ، ولم يكن المنهون يجلدون ، ولا تصدر الأوامر بالمذابح العامة ، ولا تخاف الشعوب الجلاء من الأوطان ، بل كان الأمن والسلام يشمل الجميع ، وتعرف الطمانينة والرفاهية على الكل . لقد محيت آثار مظالم الملوك الآشوريين والبابليين ، وأرجعت الشعوب المنهية الى أوطانها ، وأعيدت اليها أكرامها ومبادئها ، لم يبق اعتصاف ضد الموائد والعبادات القديمة . "

" بذل العدل لساكني الشعوب ، ومنح الحرية التامة لجميع الأديان والمذاهب

(١)

وقد حل محل الخوف الملمع السابق ، عدل عام ، وساحة كريمة ، وسادة تامة
أرايت كيف يشرح ويفصل قصاص اليوم ما أجمله القرآن الكريم في كلمات وجيزة
من فضائل الرجل وخصائله الحميدة !

"معتقدات ذي القرنين المذكورة في القرآن وغروش"

وأخر وأهم ما يلتفت نظرنا إليه من أوصاف ذي القرنين ، هو الخلاصه المباداة
لله وحده ، وإيمانه بالحياة الآخرة . وقد مر بنا ما ذكره القرآن منه ، فليست
الآن هل كان غروش كما وصف به ذو القرنين ؟

أجل تدل القرائن والشواهد كلها على ذلك .

فأول ما يواجهنا من الأمر ، هو عقيدة اليهود القومية في المسألة .

صرحت صحف اليهود الدينية عن غروش بأنه كان موعودا من الله ومسيحهم
بعثه الله لينفذ مشيئته ويتم مرضاته .

ومن المحال أن اليهود ما كانوا ليصدقوا ذلك في شأن رجل وثني لا يوجد
الله ، فلابد من أن يكون غروش من يوحى الله ويؤمن به .

ولا يخفى أن عصبية اليهود الجنسية كانت شديدة جدا ضد الأجانب فغير
الاسرائيليين ، فما كان أشد على عصبيتهم القومية من أن يعترفوا لأجنبي بكرامة
وشرف ، وقد نعمتهم هذه المحبة نفسها في بدء الاسلام من الاعتراف بنبي
الاسلام صلى الله عليه وسلم ، فكان يقول بعضهم لبعض ، " ولا تؤمنوا إلا لمن
فتح دينكم " (٣ : ٧٣) ولكم على رغم ذلك خفض جناحهم لفنائل غروش
الذي كان أجنبيا عنهم من كل الوجوه ، ولم يكفوا بالاعتراف بكرامته ، بل حسبوه
موعودا به على لسان الأنبياء وصفي الله ، فهذا الأمر الواقع يحملنا على التمسك بأنه
كان في دين غروش ما استحسنته اليهود ، وهو الذي حملهم على الاعتراف بفضل
رغم عصبيتهم ضد الأجانب .

ومن الطبيعي أن يحمد الانسان من أحسن اليه ويحترمه ، فما كان عبيدا من اليهود أن يفتخروا بحكمة الملك الذي نجاهم من الأسر والذل ، غير مهالين بدبته ، ولكن الذي ما كان ينتظر منهم ، أن يقولوا عن ذلك الملك بأنه مرسل من عند ربنا اسرائيل وأنه من أصفياه وأولياؤه .

" مزدیسنا " أي الدين الزدهشتي :

لنرى الآن ما عدنا من المعلومات من معتقدات غروهي الدينية ؟

إذا نظرنا الى الشواهد التاريخية ، نكاد نقطع بأن غروهي كان يدين بدین

مزدیسنا ، أي انه كان يتبع الدين الذي جاء به زدهشت الشرير (١) .

متى وأين ظهر زدهشت ؟ لا نعلم حق العلم ، وقد ذكر مؤرخو اليونان في القرن

الثالث والثاني قبل الميلاد ما كان شائعا في عصرهم عن زدهشت ، فقالوا ، ضمت عليه

ألف السنين . ولا يخفى أن إطلاق القول بالقدم كهذا لا يكون الا اذا بصدا المبريد

١ - الاسم الصحيح لاسم زدهشت في اللغة البهلوية " زاراتشترا " حرفه اليونان فقالوا :

" زارا سترو " والحروف الأخيرة للاسم البهلوية كالعنصر كرتية مميزة دائما ، أي تنطق منفصلة

تقريبا ، ولا يمارس هذه الحالة التعبوية ، يكتبون الألف في اللاتينية الحاضرة ، وعلى ذلك

ينطق الألف الأخير من " زاراتشترا " بصوت يشبه النصب . وتبدل ثاء الكلمات البهلوية

القديمة في بهلوية العصر الساساني ، بالذال ، فمثلا " يزتا " الذي ذكر في أوستا

أصبح في البهلوية الساسانية " يزدا " ثم حرفوه فقالوا " يزدان " وكذلك " امرتات " كان

أما أطلق من الملائكة ، وأما لشهر فارسي كذلك ، تميز في البهلوية الساسانية

فأصبح " امرداد " وثالثا هو موقع لاسم مؤسس الدين الفارسي ، فصار زاراتشترا

" زارادشترا " ثم صار بكثرة الاستعمال " زدهشت " فقال الدقيق : متى غسبون

ذلك وكثير زدهشتي . وجاء في شاه نامه :

غجسته بش نام او زدهشت كه اهرمن بدكش را بكشت

وحرف الموب " زدهشت " هذا بدورهم فقالوا : زدهشت او زدهشت .

وضعت عليه الف أو أكثر من السنين ، ولكن علماء العصر الحاضر يرون أن القسوس
مبالغ فيه ، فلا يتصور لزدهشت مثل هذا القدم . وقال الأستاذ جلدنر (Goldner)
أن زمن زدهشت لا يتجاوز ستة قرون قبل الميلاد ، وقد قبل العلماء رأيه ههنا
فإن كان الأمر كما ذكر ، فيكون زدهشت وغوروش قد عاشا في عصر واحد .

أما مكان ظهوره ، فتخرج عند العلماء أنه ظهر في إيران الشمالية ، ونسبوا
بها آريوجان (١) (آثر باهكان) بالكاف الفارسية) التي سميت في الجزء الجنوبي
بـ " هندی " من أوستا بكلمة " ^{أور باديجو} آريانا هجو " (٢) أي أرض إيرانا الظاهرة . وقال
جلدنر أن سلطا برواية شامنامه ، فيكون المقصود بفشتاسب (٣) ذلك الرجل الهندي
كان والده لدارايوش على رواية مؤرخي اليونان . وسواء ظهر زدهشت في زمن غوروش
أو تقدمه بقليل ، فليس هنالك ما يحتملنا على الريب في أن غوروش كان من متبعي
الدين الزدهشتي .

أجل ، ليس عندنا من المواهد التاريخية المباشرة ما يحددنا فيما قلناه ، ولكننا
إذا نظرنا في القرائن التي تركتها لنا النصوص التاريخية ، فلا مناص من الرجوع
إلى ما وصلنا إليه .

- ١ - " آثر " في اللغة الهيكلية القديمة معناه النار . وقد حرفت الكلمة فصارت " آثر " ثم
" آتو " وعلى ذلك " آثرائكان " معناه بستان النار ، وذلك لأنه توجد بهذه الأرض
ينابيع الفار ، والقراب في بعض الأماكن يغلب عليه الزيت ، حتى إذا اقتربت منه النصارى
اشتعلت ، فلا عجب أن سميت هذه البلاد بـ " آثر " ^{نجا} .
- ٢ - قرأت هذه الكلمة في قراءة إسبيل " هج " لا هجو " في الآية الثانية من هندابنداول
فرغون الأول " يقول أهوا مردا ، أن أول ملك خلقته هو إيرانا هج " وقد ذكر هوروس
الآية الحادية والمشرحين من هرمزد يشتمل مع الصلاة عليه .
- ٣ - حرف اليونان اسم فشتاسب فقالوا " هستانزيل " (وهو في الهيكلية
القديمة " فشتاسب " .

لنقدبر في حادثين تاريخيين لاشك فبهما وهو ثورة "غوموتا" التي نشبت
بعد وفاة غوروش بثمانى سنين ، وكتابات دارابوش على الصخور التي تلقى الضوء على
معتقداته الدينية .

لقد أجمع المؤرخون على أن غوروش توفي سنة ٥٢٩ ق . م . وخلفه ولده كيموشيه
(" كم بي سيز " في اليونانية) الذي استولى على مصر في سنة ٥٢٥ ق . م . ثم
علم ، وهو بمصر أن ثورة نشبت في مادا ، قام بها رجل يسمى " غوبوتا " زاعما
بأنه الولد الثاني لغوروش الذي كان يسمى " برده " (سرديز) في اليونانية
وكان قد تولى من قبل ، فرجع كيموشيه من مصر ، إلا أنه مات في طريقه بالشام .
ولما كان نسل غوروش قد انقطع بفناء كيموشيه ، فقد ارتقى العرش ابن عمه ، دارابوش
فقمى على الثورة وقتل زعميها . وكذلك أجمع المؤرخون على أن دارابوش ارتقى
العرش سنة ٥٢١ ق . م . أى بدأ عهده بعد وفاة غوروش بثمانى سنين .

وقد صرح مؤرخو اليونان أن ثورة مادا إنما قام بها أتباع دينها القديم ، وقد
وصف دارابوش نفسه زعيم الثورة بكلمة " موغوش " أى متبع دين مادا القديم (١) .
وقد تكررت ثورات أصحاب هذا الدين فيما بعد كذلك ، فتمت الثورة الثانية
بزعامة موغوروش " براورتهش " الذى قتل في هغ متانا ، أى همدان ، والثورة الثالثة
قام بها " شترت خمه " الذى أعدم في أردبيل .

١ - وهنا ينبغي أن ننبه على خطأ شائع ، نطقوا كلمة " موغوش " في اللغة السبئية
" مجوسا " وأطلقوها على أتباع الدين الزردشتى ، ولم يكن فى الأصل اسما لهم
فقد ثبت الآن بلا ريب أنه كان اسما يحرف به أتباع الدين الذى كان شاعرا
في مادا قبل زردشت ، فقد وردت الكلمة في أوستا كذلك واستعملت في شأن ممارضى
زردشت ، ولكن لما كان قد اشتهر أهل مادا في بلاد العرب والشام باسم موغوش
أخذوا يسمون به أتباع زردشت كذلك ، والفين في اسم " غوروش ومغوش " وأماليها أصلها
كاف فارسية تشبه في النطق حرف ج في الانجليزية وكما ينطق أهل القاهرة الجيم ، ولذلك
كثيرا ما تكتب عند ترجمتها جيما فلا غرابة إذا نطق الصوب موغوش " مجوس "

أما كتابات دارايوش ، فإن من حسن حظ التاريخ أنه اختار لها الصخور الجبلية التي عاصت على رغم الدمار الاسكندري ، وأهم هذه الكتابات ، الكتابة التي اشتهرت بـ " الكتابة من دون عمد " ، يذكر فيها دارايوش تفصيل ارتفاعه المعوش وثورة غوموتسا المجوس .

وهناك صخرة أخرى في اسطخر ذكر الملك في كتابتها أسماء البلاد الناجحة له . وقد تكرر في هذه الكتابات اسم " اهورا مزدا " الذي يرجع الملك دارايوش جميع مساعيه الناجحة الى فضله وتوفيقه . ولنا بحاجة الى التنبيه على أن " اهورامزدا " هو الله في الدين الزردشتي .

وينبغي أن لا ننسى هنا أنه لا يوجد فيما كتبه مؤرخو اليونان ما يستدل به على أن كبوشيه أو دارايوش اختار دينا جديدا ، وقد ولد المؤرخ هيرودتس بعد وفاة دارايوش في سنة ٤٨٤ ق . م . وألف تاريخه بعد وفاته بنحو خمسين سنة ، فكان عصر دارايوش ليس بمهدا عنه ومع ذلك لم يذكر شيئا عن دين دارايوش .

ما معنى ذلك ؟ ان كان كبوشيه ودارايوش لم يعتنقا دينا جديدا بعد غوروش وقد ثبت نهائيا أن دارايوش كان يتبع الدين الزردشتي ، أفلا يظهر من ذلك أن دين زردشت كان قد دخل في الأسرة المالكة قبل دارايوش وكبوشيه ، ولذلك نرى أصحاب الدين القديم بثورون بعد وفاة غوروش بسنين قليلة مرة بعد أخرى ، أفلا يثبت ذلك جليا أن غوروش كان قد اعتنق الدين الجديد ، دين زردشت ، وأن رؤساء الدين القديم كانوا يحرضون العامة وغفاء الناس باسم الدين ، يحلونهم على الثورات .

كانت شخصية غوروش ، ثورة على السلول المقلبة والاخلاقية لعصره ، وانا لا نجسد لخصائله الروحية والاخلاقية ممينا في البيئات العلامية ، والأشورية ، والبابلية ، فلا يسد من أنه استقى من معين آخر ، وما لا يهب فيه أنه وجد هذا المعين في تعاليم زردشت الأخلاقية الشلي : " هومت " و " هوخت " و " هوروش " أي صدق النية ، وصدق القول ، وصدق العمل . هذا هو أساس تعاليم زردشت الدينية . ومن مثل هذه الأخلاق كان يمكن أن يتكون مزاج غوروش الملكي .

وان ما نجده في كتب ويدا الهندية من شعائر عبادة الآلهة والفحايا ، ربما كان شائعا مثله في قبائل مادا وفارس المشتغلة بالزراعة . وكان شرب الخمر من الشعائر الدينية ، وان الشراب المسكر الذي ذكر في كتب ويدا باسم " سوم " كان يسمى عند الماديين والفرس بـ " هوم " وأن زردشت ناجي الله في أوستا في شأن هذا الشراب فقال :

" الهى ، متى يؤثر رؤساء هذه البلاد الهداية على الضلال ؟ ومتى يتحرر الناس من شرور الكاهنين والكاهنين ؟ ومتى يقضى على هذا الشراب النجس الذى يخذعون به الناس ، فيستأصل أصله ويحى أثره ؟ " (يسنا ٤٨ : ١٠) .

ويقول في مكان آخر :

" ان هؤلاء الضالين المضلين يذبحون الذبائح ويقدمون الفحايا ، ويفرحون بحملهم " (يسنا ٣٢) .

مزد يسنا :

وقد دعى زردشت الى دين " مزد يسنا " أى الى دين التوحيد الذى يحرم الشرك بالله وعبادة الأوثان .

وقد أبطل زردشت جميع معتقدات موبوش ، أى المعبوس القدماء قائلا : ليس هنالك قوى روحية كثيرة للخير ، ولا عقابيت كثيرة للشر . بل انما هو اله واحد ، اسمه " أهورا مزدا " الذى ليس كمثله شئ ، وهو الواحد ، الأحد ، القدوس الصمد وهو الحق والنور ، وهو الحكيم القادر الخالق الذى لا يشاركه في ملكه وروبيته شئ . وان القوى الروحية التى زعموها خالقة للخير ، ليست بخالقة ، بل هى نفسها من خلق أهورا مزدا ، وهى تسمى " أمش سيند " (بالباء الفارسية) و " يزتا " أى الملائكة وأنا لنجد في جزء أوستا الذى يسمى " غانها " أسماء ملائكة عديدة مثل " أشا " و " هوفنا " و " خسترا " و " أرمتى " و " هوروات " و " أمرات " وكذلك ذكرت أسماء ملائكة أخرى في الكتب التى تلت أوستا ، وقد سميت الألهام والشهور عند الفرس بأسماء هؤلاء الملائكة .

وكذلك صرح زردشت بأنه ليس للشر اله ، بل الذي يأمر بالشر ، هو " انشرامس
نورس " أى الشيطان . وقد حرف الاسم ، فأخذوا يقولون : " أنرومين " محمد مدة
حرفوه ، كذلك ، فأصبحوا يقولون : " أهريمن " .

وان من العناصر الأساسية للدين الزردشتي ، الاعتقاد بالحياة الأخروية ، فهو
يقول لا تنتهي حياة الانسان بموته في هذا العالم المادى ، بل له حياة أخرى
بعد هذه الحياة الدنيا ، فهوى في تلك الحياة عالمين : عالم السعادة وعالم الشقاء
فالذين عملوا الصالحات في حياتهم الدنيا ، يدخلون عالم السعادة ، والذين دنسوا
نفوسهم بالشعور ، يدخلون عالم الشقاء .

والاعتقاد ببقاء الروح من معتقدات الدين الزردشتي الأساسية ، فهو يقول بفناء
الجسم ، أما الروح فيبقى بعد الموت ويلاقى الجزاء وفق أعماله .

وأهم ما في الدين الزردشتي هو قانونه الأخلاقى ، فليست الأخلاق في نظامه
منفصلة عن الدين ، كما كان الأمر عند اليونان ، بل هي جزء من الدين ، لا انفصال
بينهما . وكذلك لم يكن الدين عنده همارا قويا ، وأسا لرسم وموائد ظاهرة فقط ،
بل قانونا ونظاما للحياة الفيزيكية . وان طهارة النفس وحسن العمل ، لهما المحور الذى
تدور عليه نعاليمه الدينية . وهو يطالب بموافقة النية والقول والعمل لهذا القانون موافقة
تامة . وهذا القانون يتلخص في كلمات ثلاثة : هومت ، هوخت ، هوورشت ، أى صدق النية
القول ، وصدق العمل . وان دينه ، كما قال الأستاذ غرندى " كان دين الحقيقة والعمل " (١)
فقد جعل الدين حقيقة حياة القوس اليومية ، وجعل مكارم الأخلاق ، عنصرا مركزيا (٢)

وكان دينه لا تشوبه عابئة من الوثنية ، فهو لم ينج عبادة الأصنام في شكل من
الأشكال . وقد هنت على دينه أدوار من التحريف والتبديل ، الا أن متبنيه ما زالوا
مجتبئين الوثنية . وقد اعترف بذلك " مالكهم " في كتابه " تاريخ ايران " قائلا :
" لم ينج القوس من بين الشعوب القديمة الى الوثنية من أى نوع في دور من
أدوار تاريخهم " .

عرفت الهند القديمة كذلك التوحيد ، ولكن بقي تصويره فصورا في الخاصة من أهاليها ، أما العامة ، فاستحسنوا لها الوثنية ، أما زردشت ، فلم يفرق في ذلك بين العامة والخاصة ، فظل مشغول من سائر الطبقات بوحدة الله على السواء . ولا نكون مخالفين ان قلنا : لم ير التاريخ القديم الا دعوتين للذهوان الى التوحيد في العالم الوثني ، وهما دعوة ابراهيم عليه السلام من الشعوب السامية ، ودعوة زردشت من الشعوب الآرية .

زردشت والثنوية :

ظن الناس أن الدين الزردشتي قام على الالهية الثنوية (أي الاعتقاد بوجود الهين اثنين في الكون : اله للخير ، واله للشر ، كما كان المجوس يعتقدون قبل زردشت ، ولكن ثبت بعد البحث والتحقيق أن هذا الظن ليس من الحق في شيء . أجل قال زردشت بأصلين كونيين : أصل الخير ، وأصل الشر ، ولكنه لم يقل بالهين متوازيين . كما كان المجوس يعتقدون قبله ، فقد أنكروه هو انكارا تاما . نعم انه كان يقول بالأخلاق الثنوية ، لا بالالهية الثنوية .

وقد حاول بعض الفرس الزردشتيين في العصر الحاضر أن ينزهوا الدين الزردشتي عن الثنوية كلية ، الا أن محاولتهم هذه لا تخلو من التكلف ، ولم تكن ثمة حاجة اليها . ماهي حقيقة الثنوية عند زردشت ؟ انها ليست الا القول بأنه يوجد في الكون أصلا : أصل للخير وأصل للشر ، وأن الذي يجلب الشر هو " انشراق نيسوش " (أهرمن) وهو الشيطان في لغة ، وهذه الثنوية لا يخلو منها دين ، وإن تفاوتت درجات الأديان فيها ، فاليهودية والنصرانية والاسلام ، كل من هذه الأديان الثلاثة يقول بوجود الشيطان ، وإن عدنا الى تحليل " انشراق نيش " الذي ذكره أوستا . والشيطان الذي حدثنا عنه كتاب الخلق من التوراة تحليلا منطقيا ، فأننا لا نجد بينهما فرقا جوهريا .

وهنا تعرض لنا مشكلة أساسية : أليس في الكون شيء يصح أن يسمى بالخير أو الشر ؟ وهل الذي نسميه بالخير أو الشر ليس له وجود في الخارج بل هو تأثير

اضافي لنا فقط ؟ ان قلنا بذلك فليهما لا يبقى مجال لوجود الشيطان او انصراسي
 نبوش ، ولكن ان قلنا بوجود حقيقتين متوازيتين للخير والشر ، فلا مناص من قبول الثبوت
 في شكل من الأشكال ، وهو سبناها بهذا الاسم أو بغيره ، فانها تحتل مكانا
 في معتقداتنا .

وهذا أفلاطون ينقل لنا في كتابه " الجمهورية " قول سقراط ، ان الشر فسي
 العالم أكثر من الخير ، ولما كان من المستحيل أن يكون الله علة الشر ، فلا بد من البحث
 عنها في شخص آخر . وهذا البحث يصل بنا الى الشيطان أو الى انصراسي نبوش .
 وقد حكى كتاب الخلق من التوراة قصة آدم والشيطان وقص أوستا قصة " جم " و
 " انصراسي نبوش " والحقيقة واحدة في القصتين وأن اختلقت الأسماء والأشكال .

روح مزدجنا الأخلاقية :

وقد اجتمعت كلمة محقق العصر الحاضر على أن تعاليم زردشت قد لعبت دورا هاما
 في الرقي الانساني الفكري والأخلاقي ، وأنه وصل بأهل مادا وارس قبل خمسمائة سنة
 من الميلاد الى المستوى الأخلاقي الظاهر الرقيق بينما كان اليونان والروم في حضيض
 من الأخلاق . وأن الدين الذي جعل هدفه الوحيد تطهير الحياة الفردية من
 أدران الشرور ، كان خليقا أن يسبك قوالب مثالية للأعمال الحسنة والخصائل الحميدة .
 ومن الذين شهدوا له بذلك ؟

هم أولئك الذين لا يمتون بصلة صداقة للفرس ، بل كانوا ألد أعدائهم . وعلى رغم
 ذلك نراهم لا يمارون في فضل الفرس الأخلاقي ، فهذا هيروdotus ومنوفون يحترفان صراحة
 بأن الفضائل التي تحلى بها الفرس ، خلقت منها اليونان ، ولتستمر من الأستاذ غرندي
 كلمة التي قالها في هذا الباب " ان ما كان الفرس قد اتصفوا به من الصدق ومحاسن
 الأخلاق ، لا نرى له مثيلا في الشعوب المماثلة لهم " .

كتابات دارابوش :

بلغ الدين الزردشتي ذروة مجده في عصر دارابوش . وما نحن أولاء نسير

الامبراطور يردد صوت هذا الدين في كتاباته الخالدة • على الصخور فيقول في
واحدة منها • وقد نحت عليها ألفان وخمسة مئة :

" ان الاله الملى • أهو رامزدا • هو الذي خلق الأرض ورفع السماء • وفتح
سبل السعادة على البشر • وهو الذي أقام دارايوش وحده حاكما على التيريسين •
وجعله واضح الشرائع لهم " •

ويقول في كتابة أخرى :

" يعلن دارايوش للناس قاطبة بأن أهورامزدا • قد وهبني الملك بفضل ورحمته
وقد نجحت بتوفيقه تعالى في تدعيم الأمن والسلام في الأرض • واني ابتهل السي
أهورامزدا الهى • أن يرعاني أنا • وأسرني • وجميع البلاد التي جعلني حاكما عليها •
يارب • أهورامزدا • اسمع دعائي واستجبه " •

الدعوة الى الصراط المستقيم :

وكذلك يقول الملك :

" بأيتها الانسان • أمرك أهورامزدا أن لا تخوض قط في الشر • ولا تحب من

الصراط المستقيم أبدا • واحذر الاثم في جميع الأحوال ! " •

ولا تنس أن دارايوش كان ابن عم غوروش • وقد خلفه بعد وفاته بثمانى مئتين سنة
وعلى ذلك ما يقول دارايوش فكانه قول غوروش نفسه • وان نسبة دارايوش ملك وكل نجاحه
الى فضل أهورامزدا وتوفيقه ورحمته • تطابق قول ذى القرنين في القرآن " هذا رحمة
من ربى " (٩٨)

تأخر مزدكينا وتحريفه وامتزاجه بغيره :

وقد بدأ تأخر الدين الزردشتي من القرن الثالث قبل الميلاد • فرفقت المعتقدات
المجوسية القديمة رأسها من جهة (٢) وأخذت المؤثرات الخارجية تعمل عليها فيه •

1 - G. W. G. 'Five Great Monarchs of the East'
Futurist review

٢ - يشبه هذا ما حصل للديانة البوذية في الهند فقد طغت على الهندوسية والديانة القديمة
مدة في الهند ثم انحسرت وتقلص ظلمها وعاد أكثر الناس تدريجيا الى الديانة الهندوسية

حتى نرى هذا الدين ، دين غوروش ودارايوش في عصر الامبراطور الروماني ، "انتونين (Antonin)" قد تحول الى شكل آخر فقد سذاجته الأولى ، وانتمت اليه عقائد معوجة محققة .

والحقيقة التي لا مرا فيها أن حرب الامكندر لم تقض على دولة ^{الفرس} السطورية وحدها بل جرحت مجد دينها القوي كذلك جرحا بليغا . تقول لنا الأسطورة الفارسية أن صحيفة زردشت الدينية المقدسة كانت دوت في جلود اثني عشر ألف ثور بحسب من الذهب ، واحتترقت أيام حرب الاسكندر .

ولاشك أن القول بجلود اثني عشر ألف ثور ، مبالغ فيه ، ولكن ما لا ريب فيه أن ما فعلت اغارة بخت نصر مع التوراة ، فعلته اغارة الاسكندر ^{مع أوستا} كتاب زردشتية أي أن الدينين فقدوا معظم بضاعتها .

ولما تأسست الامبراطورية الساسانية بعد خمسمائة سنة من الاسكندر ، حاول الفرس لم شعث الدين الزردشتي من جديد ، فكما جمع النبي غزرا التوراة بعد أسر بابل ، كذلك يقال ان " أردشير بابكان " أمر بجمع كتاب أوستا من جديد الا أن خصوصيات الدين الحقيقية كانت قد تحرفت بتفسيرات وإضافات كثيرة ، ومسخت حقيقتها فالدين الزردشتي في شكله الجديد ، لم يكن ديناً خالصاً ، بل أصبح خليطاً من المجوسية القديمة ، واليهودية ، والزردشتية . وقد زاد المفسرون له الطين بلة وذلك بحواشيهم وشروحهم وتفسيرهم التي ذهبت بالدين بعيداً عن أصله .

الاسلام والزردشتيون :

ولما جاء الاسلام ، كان هذا الدين الزردشتي الحرف معروفاً العرب باسم المجوسية وهذا خطأ كما سبق أن نبهنا في الهامش - غير أن نبي الاسلام صلى الله

عليه وسلم . لم يخف عليه أصلاءه ، فقال " سنوا بهم سنة أهل الكتاب " أى عاملوا
الزردشتيين كما تعاملون أهل الكتاب ، فترى من هذا أن نبي الاسلام عليه السلام
لم يقم الزردشتيون مقام المشركين ، بل وضعهم بمقام أهل الكتاب .

وهكذا اعترف الاسلام لدينهم بما اعترف به لدين اليهود والنصارى ، وانسبك
لتعلم أن الاسلام بينما يصدق بأصل دين اليهود والنصارى ، ينكر عقائدهم المحرفة
الجدلة . وهذا هو ما فعله بالدين الزردشتى ، فلم ينكر أصله ، بل أنكر الجوسية
المحرفة الجدلة .

وقد روى عن أمير المؤمنين على بن أبى الله عنه أنه قد قال : (انى أعلم ما عليهما
المجوس . عندهم شريعة يحملون بها ، وكتاب يؤمنون به ، فعاملوهم معاملة أهل
الكتاب) .

فما زال المسلمون يرون أن الدين الزردشتى فى أصله لم يأمر بعبادة النار ،
بل أمر بالتوحيد ، وأن زردشت كذلك كان نبيا من الأنبياء القدماء . وقد أفصح
الفردوسى صاحب " شاه نامه " الخالدة عن هذا الرأى بقوله :

مكولى كه آتش پرستان بدند بر مستند كان نيك بزدان بدند

أى لا تقل عن الزردشتيين أنهم كانوا عبدة النار ، بل كانوا يحبدون الله

الواحد .

وكان أبو الريحان البيرونى فى عصر الفردوسى يحقق التواريخ والسنين للأمم

القدمية . وقد قال فى كتابه " الآثار الباقية " ما يستنبط منه أنه كان يفرق بين

الدين الزردشتى والمجوسية . وقد صرح شيخ الاشراف ، شهاب الدين المقدسول

فى كتابه " حكمة الاشراف " بأن زردشت كان نبيا . ليس هذا فحسب بل وصل بسين

(١) الخلفاء
=====

" الخلافة " : مصدر من خلف يخلف خلافة ، ومنها الخليفة ، من قولك : خلف فلان فلانا ، في هذا الأمر ، اذا قام مقامه فيه بعده (ابن فارس) . فالخليفة هو الذى يخلف من قبله ، ويقوم مقامه ، اما بموته أو عزاله أو غيبته أو نفيه اياه عن منصبه وسلطته ، وفي مفردات الامام الراغب الأصفهاني " الخلافة : النيابة عن الغير اما لشبهة المنوب عنه ، واما لموته ، واما لعجزه ، واما لتشريف المستخلف " (ص ١٥٥) وهذه الكلمة أيضا من تلك المختارات اللغوية التى اختارها القرآن الحكيم ، فقلها من معانيها اللغوية الى المعانى المطلحة الشرعية (كالإيمان والنيب والتقدير والبحث والصلاة) وغيرها من الكلمات التى انتقناها من اللغة لمعنى خاص به ، فكلمة (الإيمان) مثلا تستعمل فى اللغة لليقين والطمأنينة وزوال الخوف والشك - ولكن القرآن يستعملها فى يقين أخص من الأول ، يصحبه اقرار باللمان وهل بالجوانح ، فصارت اصطلاحا خاصا دالا على معنى خاص به دون دلالتها فى اللغة .

وكذلك كلمة الخلافة كان معناها فى اللغة - فوضعها القرآن لمعنى أخص ممن الأول ، واستعملها - وكذلك الاختلاف فى الأرض ، ووراثة والتكبير فيها - ففسس العظمة القومية ، والرئاسة الملية ، والحكومة العامة ، والسلطة الثامة على الأرض ومن فيها من الامم والشعوب ، وبعدها أكبر منة وجزاء من الله سبحانه تاله الأمم فى هذه الحياة الدنيا ، على ايمانها وحسن عملها .

١- نشر هذا البحث فى مجلة المنار فى المجلد الثالث والمشرى الصادر سنة ١٣٤٠ هـ
١٣٤١ هـ الموافق سنة ١٩٢٢ صفحات ٤٥ - ١٠٢ - ١٩٣ - ٢٨٢ - ٢٦١ - ٢٦٦
٥٠٩ - ٦٩١ - ٧٥٣ . وقد تعرض السيد رشيد بانقد فى الهامش لبعض آراء مولانا آزاد حول الخلافة وكان السيد عبدالرازق تليها للسيد رشيد رضا كذلك فى مدرسة الدعوة والارشاد حيث قضى مدة مصر وظل يواصل أستاذة كذلك بعد رجوعه الى الهند وهو الذى قام به ترجمة هذا البحث .

اما المراد من هذه الخلافة فهو ان تقوم في الارض امه وحكومة تأخذ على عاتقها هداية النعم البشرى وسعادته ، وتنشر لواء القسط الالهي ، وتمحق الظلم والجور والفساد والظلم ، وحتى لا تذله اثر على وجه البسيطة . وتمد رواق الامن والمكينسة وبالراحة والطمأنينة على العالم بأسره وتقيم ناموس العدل الالهي الذي يسميه القسـرآن " الصراط المستقيم " الذي هو نافذ من الارض الى السموات الصلى ، ومن ذرات الرمل في الصحراء الى الشمس والقمر والنجوم ما هو تحت الثرى ، تقيم ذلك الناموس في مشـسارق الارض ومغاريها ، وتنفذه في جميع بقاعها ونواحيها ، حتى تصبح الكوة الارضية جنسية ودار قرار ، وتكون السعادة شارب فيها بأطنانها والامنة بأسطة جناحيها من فوقها .

وانما اطلق لفظ الخلافة على هذه الخلافة المصطلحة ، لان اول امه واول نـسـرود لما قام في الارض باعباء الخلافة كان ملثبا عن الله في اقامه عدله ، ثم القين جاءوا بعد ذلك الامه وذلك الفرد كانوا نائبين عنهم في هذا الامر ، حتى ظهر الاسلام ، وقامت الامـسـه الاسلاميه ، فانتقلت الخلافة الارضية الالهية اليها . فكان اول خليفة من هذه السلسـسـة المباركة صاحب الشـرع المتيين ، ورسول رب العالمين محمد صلى اللـهـوسلم ، فكان خليفة الله المظلم مباشرة ، ثم الذين استـهـوا بعده على منحه الحكومة الاسلامية المركزية ، فكانـهـوا خلفاء هذا الخليفة الالهي ، والنائبين عنه في الدنيا فلذا سمو " الخلفاء " ولا يزالون يسمون به الى الان .

وقد تقلبت خلافة الارض ووراثتها في ام كثيرة قامت كل واحدة منها في نيتها بخدمة دين الله الحق . وقد ذكرت هذه الخلافة في الايات الاتية : " هو الذي جعلكم خلائف الارض " (٦ : ١٦) " ويستخلف ربي قوما غيركم " (١١ : ٥٧) " ثم جعلناكم خلائف في الارض من بعدهم لننظر كيف تعملون " (١٠ : ١٤) " واذكروا ان جعلناكم خلفاء من بعد قوم نوح " (٢ : ٦٨) " يا داود انا جعلناك خليفة في الارض " (٢٨ : ٢٦) .

وعبر عن هذه الخلافة " بوراثة الارض فقال تعالى : " ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر ان الارض يرثها عبادي الصالحون (٢١ : ١٠٥) وايضا : بالتمكن في الارض ، وهو استغلال القوة ، وكما ان للمظلم الذي ناله في اسرائيل في ارض الذراعـسـه

بعد أن بيع فيها عبدا ، ثم وصل إلى عرش الحكومة وتاج الملك بصلبه الحق وسيره القوم
 وكذلك مكنا ليوسف في الأرض * (١٢ : ٥٦) .

وقد وعد الله به سبحانه المسلمين فقال : * الذين ان مكاهم في الأرض أقاموا
 الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر * والله عاقبة الأمور * (٢٢ : ٤٣)
 وثبت أيضا من هذه الآية أن الله تعالى إنما يريد من التمكن في الأرض أن تقام
 عبادته فيها ، ويتم الصلاح والصدق والهداية ، ويعد الإنسان الصنود عن فيه وعمل
 المنكر .

وعبر في الآية الأخرى عن التمكن في الأرض * بالخلافة * فقال تعالى : * وهذا
 الله الذي آمنوا بحكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم
 وليمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون
 بي شيئا ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون * (٢٤ : ٥٥) .

نزلت هذه الآية العظيمة في هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه إلى
 المدينة ، وكانوا فيها خائفين من الكفار ومحاطين بالأعداء من كل جهة : يصبحون
 في السلاح ، ويصون في السلاح ، فنجبر منهم رجل من هذه الحالة وقال : * ما يأتي
 علينا يوم نأمن فيه ونضع هذا السلاح ، فيشرهم الله بهذه الآية أن لا يهتوا ولا يحزنوا
 فانه لا يضيع أجر إيمانهم وحسن صليهم ، فيسألونه بأذنه ، وأمنون أعداءهم ، فيذهب
 عنهم الخوف ، ويحل محل الأمن ، ويصيرون ملوكا وسلاطين ، فيكون الأمر أمرهم ، والكلمة
 كلمتهم ، وأكبر من ذلك كله أن خلافة الله ستنتقل إليهم ، فيرثونها وتطمئن قلوبهم
 بها (ذكره الطبري بالمعنى في تفسيره عن أبي المالية (ج ١٨ ص ١٠٩) .

وقد تضمنت هذه الآية أن مراد القرآن الحكيم * بالخلافة * إنما هو * خلافة
 الأرض * أي الحكومة والسلطان فيها . فإذا لا بد للخليفة الاسلامي من أن يكون صاحب
 الأمر والنهي والحكومة التامة ، لأنه ليس كبايا المسيحيين وطاقتهم ، فأولئك سلطتهم
 روحية ، وهي خضوع القلوب ، ونحناء الرؤوس أمامهم ، بل هو حاكم وسلطان بالمعنى
 الحقيقي ، إلا أن سلطته يجب أن تكون تحت الشريعة الإلهية ، وليس له حق التشريع

البته ، ولا اعتدائه الشريعة ملزمة دينيه روحانية كما اعطى المسيحية البابوات ، لانهم
تعد كل سلطة لشير الله ورسوله شركا به وكفرا ، تمتعه اشد المقت ، وتمامه من اول ظهوره
قال الله تعالى : " اتخذوا احبارهم ورجالهم اربابا من دین الله " (٩ : ٣٢) وقال :
ما كان لبشر ان يوتيئه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول الناس كنونا عبادا لى من دون الله
ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون (٣ : ٧٩) .

هذا وقد وفى الله تعالى للمسلمين وعده بالخلافة ، كما وفى جميع وعوده ، وعهوده ،
فلم تضر بضع سنين والرسول بين اظهرهم ، الا واصبحت جزيرة العرب فى قبضة يدهم
وشهدت جيوشهم خارجة من اسوار المدينة لمقاومة الروم - اعداء دينهم - وسوقهم
الخلافة الارضية اليهم بعد ان نزع من غيرهم . فكان اول خليفة منهم هو حامل الشريعة
الغراء بنفسه صلى الله عليه وسلم ثم الذين قاموا فى مقامه من بعده كانوا خلفاءه . وقد اوضح
النبي صلى الله عليه وسلم بتسميتهم " خلفاء " انهم يتولون^{سوف} عنه بعده ، فقال للمسلمين
: " عليكم بعنتى وسنة الخلفاء الراشدين من بعدى " (رواه ابن ماجة عن الصادق - ع)
بن مارية () ولذا سعى ابو بكر الصديق رضى الله عنه لما خلفه خليفة رسول الله صلى الله
عليه وسلم .

الخلافة النبوية الخاصة

والخلافة الملكية

انصفت الخلافة الاسلامية بعد النبي صلى الله عليه وسلم بصيغتين مختلفتين وظهرت بمظهرين
متباينين ، وكان عليه السلام قد اخبر عنهما ، ورفع الشار عن خصائصهما والاحاديث التى
وردت فى هذا الباب تكاد ان تكون متواترة لكثرة طرقها وشهرة مقولتها - فخلافة الخلفاء الراشدين
المهديين كانت مصبوقة بصيغة الرسالة ، وسائرة على منهاج النبوة ، فكانت خلافة الرسول حقا ،
والخلفاء الراشدون خلفاءه حقا لا فى منحه الحكم والسلطان فحسب ، بل فى جميع
اعماله وهديته ، فكانوا مثله دعاء الدين عداه الامم ، قضاة الشرع ، قادة الشعوب باسمه
البلاد ، قواد الجيوش ، اخوة الحروب ، رايات .

وقد كان هذا الدور أكبر محبة أبتليت بها الأمة • نهد أن كانت ترتع في رسل
النبوة • وتجنى ثمار الخلافة الراضة آمنة مطمئة إذ نطق ناطق الشر بيها • وتسل
المخلقة الثالث بشأن بن عازن رضي الله عنه بين يديها • تقضى ظل هدى النبوة
شيئا فشيئا • وذهبت بركاتها واحدة واحدة • وأخرجت البدع رؤسها • وزحفت القسطن
بها • ورحلتها • فأحاطت بها من كل جوانبها • فكلما يحدث الأمة من عهد الرسالة
حرمت نفسها من بركاته وبركات الخلافة الراضة •

ولم يكن حوائجها محصورا في أمر الأمانة المظنة والخلافة الكبرى قط • بسبل
تعداها إلى غيرها • وتخلخت جوانب التمسك في هيكلها الاجتماعي • فزومت نظامها
وتوابعها ثم عرت إلى حياتها الشخصية • فأصعدت قائدها ومواطنها • وثقت في أمثالها
سوءها • ففهرت من صغيرها وكبيرها • ولم تكن نقطة واحدة أو فتنة قليلة محصورة
بسهل انتاؤها • بل سالت سبول من الفتن • همت المسلمين بنقطة • فاجت عليهم أمواجها
وثقلت عليهم وطأتها • فكانت • كما قال أظم الصحابة بالفتن حذيفة رضي الله عنه •

" تنج كبح البحر " • ورون لهم أنه ليس بينهم وبينهم حد إلا عريجين الشطوط
رضي الله عنه • وأنه متى سقط هذا الحد الشيع طفت الميول الجارة ونفت • فلم
يقدر أحد على مدد • فما زالت حتى أخذت الخلافة النبوية في تيارها وحطمتها
وتركتها أثرا بعد حين •

نعم وقع ما وقع • إلا أن الأمة الإسلامية قد بعثت على لسان نبيها بأنها مستنرى
في أمر أيامها بعد لجاح وفلاح • فشر به جنبها • وحشر صديقا • وتصلح أمورهم
حق لا يدري أولها خير أم آخرها • وهم فيه نور الله • والله متم نوره • الخ • ليظهره
على الذين كرهوا كره المشركون • ولذا لا يزال قلب المؤمن قويا بربها الله • مملوا
بأيتين • لم يخالفه ريب ولا شبهة ريخ • ولا طادعه بأس وقنوط • حتى في هذا الزمان
الذي اندببت فيه على المعنيين المصائب • ونزلت بهم التوازل • وزلزلوا فيه زلولا شديدا •
من كلما ازبدات المواصف شدة والليل ظلمة • والأرض عداوة • يزداد المؤمن رجاء
وثيقا • ويصبر بحونه نور الصبح الجليل بين هاتيك الظلمات والغيم والسواصف ولسمان
حاله يقول " إن موعدكم الصبح • أليس الصبح بقريب ؟ " •

عهد الاجتماع والائتلاف ودور التفتت والانتشار

=====

قبل أن نخص غمار هذا البحث نتكلم في هذا الفصل على كلمتين مصطلحتين زيادة في الايضاح وتفصيلا للبيان — فنقول :

" الاجتماع والائتلاف " كلمتان خفيفتان على اللسان • هيلتان في الميزان • فهما سر حياة الأمم ومساتها • نهوضها وهبوطها • ومصادتها وشقوتها • فالاجتماع — من الجمع • وهو ضم الشيء • بتقريب بعضه من بعض (مفردات ص ١٥) وتقريب منه "الائتلاف" من الألف واجتماع من التثام • " والمؤلف ما جمع من أجزاء • ورتب ترتيبا • تقدم فيه ما حقه أن يقدم • وآخر فيه ما حقه أن يؤخر " • (مفردات ص ١١) •

أما عهد الاجتماع والائتلاف • فهو ذلك العهد الذي تجتمع فيه القوى الاجتماعية الفعالة في مكان واحد • وفي نقطة واحدة • وفي سلسلة واحدة • وفي ذات واحدة • وفي يد واحدة • بترتيب طبيعي لاقي بها • فتصبح كل المواد والقوى والأعمال الاجتماعية وأفراد الأمة متماسكة متشابكة • حتى لا ترى فيها خللا ولا خرقا ولا نقا • بل تجدها كلها كحلقات السلسلة التي التهم بعضها مع بعض فأصبحت شيئا واحدا •

فدور الاجتماع والائتلاف اذا جاء على المادة ظهر فيها الخلق • واستعدت للحياة • وصر القرآن من هذا • بالتخليق والخلق والنسوة • فقال " الذي خلق نوسى " (٢:٨٢) — فالوجود والحياة ليس الا اجتماع أجزاء المادة مؤلفة • وكذلك الموت والفناء ليس الا تفريقها وتشتتها •

واذا جاء على الأعمال سماه علماء الأخلاق " بالخير " وسماه الشريعة " بالممسل الصالح " — والصنات • وإذا جاء على الجسم سماه علم الطب " بالصحة " وقسال للطبيب " هذه حياة " ثم اذا جاء على القوى والأعمال الاجتماعية القومية سمى " بالحياة المليمة الاجتماعية " وكان موجها لنموخ الأمة ونفوذها وسلطانها — فالحبارات مختلفة كثيرة • والحققة واحدة لا تتحدد ولا تتبدل • ولا غرو فان الله الحكيم واحد مفرد • وحكمته

واحدة • وناموسه واحد - ولنعم ما قيل •

عبارتنا شتى وحسنك واحد • • وكل الى ذلك الجمال يشير
ضد الاجتماع والائتلاف " التشتت والانتشار " فالتشتت من " الشتات " ومعناه في
اللغة التفرق يقال شتت جمعهم شتاً وشتاتاً • وجاءوا اشتاتاً أى متفرقي النظام
(مفردات ص ٢٥٦) وفي القرآن " يومئذ يصدر الناس أشتاتاً " (٦/٩٩) من
تبات شتى (٥٣/٢٠) وقلوبهم شتى (١٤/٥٩) أى مختلفة " والانتشار " من
النشر وهو أيضاً التفرق والبعث كما في القرآن " فإذا قضيت الصلاة فانتشروا "
أى تفرقوا -

وأما دور " التشتت والانتشار " فهو ان تتفرق المواد والقوى والاعمال والافراد
فيصير كل شئ على ضد ما كان عليه في عهد الاجتماع - فإذا عرضت هذه الحالة
للمادة قيل " فساد وانحلال " وللجسم قيل " مرض وداء " ثم موت " وللأعمال قيل
في تفسير القرآن " عمل السوء والمعصيان والفسق والاجرام " وللأم قيل " الموت
الملى • والموت الاجتماعي " فتصبح الأمة في هذا الدور في هبوط بعد الصعود
وذلة بعد المزة ، وضعف بعد القوة ، وعبودية بعد الحرية والمسيحية ثم
تسير الى الموت والهلاك بعد ان كانت صحيحة قوية حية فياله من بلاء ليس
فوقه بلاء والميتاء بالله •

ولذلك تجد القرآن ينبه مرة بعد مرة على ان " الاجتماع والائتلاف " الاساس
الأكبر لحيلة الام • ويحمده أكبر نعمة من الله سبحانه على البشر • ويمبر هذه
بالمباركات العظيمة الشأن • كالاخصام بحبل الله • وغيره • ويقول للأمة " واعتصموا
بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم ان كنتم اعداء فالف بين
قلوبكم فاصبحتم بنعمة اخوانا " ثم يخبر بعد هذا بان لاهياة مع التشتت والانتشار
فانه نار موقدة تحرق كل شئ يقربها ولا سيما شجرة الحياة الاجتماعية فانها
اذا مستها لا تبقى عليها ولا تنذر - فقال تعالى " وكنتم على شفا حفرة من
النار فانقذكم منها • كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون " (١٠٣/٣) ثم
يخبر بان الحياة الاجتماعية في الأ

(١) الأم ليست من تدبير البشر ، فبها بلغ الانسان من القوة والعظمة والمقل ، لا يقدر على أن يكون أمة ، بل هو الله الواحد القادر بجمع الأشعات فيكون بينهم وبينها رسلها في نظام واحد فقال " لو أنفقت ما في الأرض جميعا ، ما ألفت بين قلوبهم ، ولكن الله ألف بينهم انه عزيز حكيم " (٦٤/٨) .

وأخبر القرآن أيضا بأن أول ثمرة تثمرها الدعوة الالهية وأعظم بركة تجود بها على النوع الانساني في الدنيا هي " الاجتماع والاعتلاف " وكبر مرة بعد أخرى أن الشق والتشتت والانقسام لا يمتنع مع الدين أبدا . وأنه عاقبة الاعراض عن الله وعيانه والبشر فيه . فقال " وما اختلف فيه الا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بينهم " (٢٢٢/٢) وما اختلفوا حتى جاءهم العلم " (١٣/١٠) وأتيناهم بينات من الأمر ، فما اختلفوا الا من بعد ما جاءهم العلم بنينا بينهم " (١٦/٤٥) .

ولذلك جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم الاسلام والحياة الاسلامية في الجماعة وعد الخرج عنها من الجاهلية . والحياة الجاهلية . فقال " من فارق الجماعة فمات ميتة جاهلية " (كما ستراه مفصلا ان شاء الله) وأمر المسلمين أمرا مؤكدا بالالتزام بالجماعة في كل حال . ويطاعة الأمير سواء كان برا أو فاجرا . أهلا للأمانة أو قسيما . عادل أو ظالما . الا أن يمرق من الدين بهارا أو يترك الصلاة نصيحتا لا طاعة له عليهم (٢) . وأخبر أن كل من تنكب عن الجماعة شيئا فقد كسب

١ - ليس المراد أنه لا ينبغي لزعماء الشعوب والأقوام المشرقة أن يسموا الى تكوينها وحملتها أمة عزيزة لمجز البشر من ذلك بل المراد أن هذا التكوين للأمم قد جعل بسنة الله تعالى في الاجتماع أثرا وفاية لأصاال أطوار كثيرة بعضها من كسب الافراد وبعضها ليس من كسبهم فلا تقع بتدبيرهم ولكن عليهم أن يحملوا ما في طاقتهم من وسائلها ويكلوا الى عناية الله تعالى انجاح سعيهم وانعام عملهم .

٢ - انما الطاعة في المعروف ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق كما صح في الحديث وأجمع عليه المسلمون . وصرح الفقهاء الراشدون على منبر الرسول صلى الله عليه وسلم بمطالبة المسلمين بتقويم زيفهم وهدوهم . وانما يمتنع ضد علماء اهل السنة الخرج على الامام الجائر اذا كان يمشي من الخرج عليه نعمة تفرق الأمة وهي معانها لنصف القائمين بذلك من الأمة . واذا كان المؤلف قد وعد بتفصيل - القول في المسألة فالتا منتظرون ما يبيح به غاما أن يقره وامرنا أن نذيله بشاشة تبين فيها ما نرى انه الحق كما بيناه في المنار مرارا .

زردشت وبين المذهب الافلاطوني الجديد (١) ، ووافق في قوله ، هاج " حكمسة الاشراق " قطب الدين الشيرازي . وقد صرح من بين متصفي الهند ، الصوفسي السج ، الواسع الفكر الميرزا مظهر جان جانان بمثل هذا الرأي في شأن قيادة الأديان القدماء بالهند وايران (٢)

ولما نقل العرب ما وجدوه من الكتب الفارسية القديمة الى اللغة المهيبة ، ترجموا كذلك كتاب (أوستا) الذي ذون في العصر الساساني ، والله بهير مرة بعد أخرى أبو حمزة الأصفهاني في تاريخه . وكذلك بين المسمودي والبيروني ترجمة أوستا ، وذكرنا ترجمته العربية ، فقالا ، ان أوستا يحتوى على واحد وعشرين جزءا يكتب كل جزءا منها في نحو اربعمائة صفحة ، وأنه يسمى أحد الأجزاء بـ " جستروشت " الذي ذكرت فيه بداية العالم ونهايته ، وسمى الجزء الأخير منها بـ " هادوخت " الذي يحتوى على وصايا أخلاقية (٤)

١ - نفى الفلاسفة من الاسكندرية بأمر ابراطور الرومان جستينين في سنة ٥٢٩ م . فتوجه بعضهم الى ايران ولقوا كل ترحيب في بلاط أنوشروان ، وقيل ان : من نس ودبما ستم ، قد خصا باحترام كبير في البلاط ، وقد عرفت اللغة الفارسية مذهب أفلاطون الجديد بسبب هؤلاء الحكماء ، وليصفوه بالصنعة القومية ، ونسبه بعض حكماء ايران الى زردشت وجاماسب ، ولما نقلت الآداب الفارسية الى العربية توهم الناس أنه كانت لزردشت وجاماسب فلسفة ذات أسرار ، شبه فلسفة لاسكندرية الى حد كبير ، ولعل الذي كتبه هيسنخ الاشراق في مقدمة " حكمسة الاشراق " ناتج من هذا الوهم . وقد أخطأ حكماء العرب في ظنهم أن مذهب أفلاطون الجديد الاسكندري ، مذهب أفلاطون نفسه . وقد وقعوا في هسناذا الخطأ لأنهم لم يفرقوا بين بلاتينس وأفلاطون ، أو خدعهم نسبة المذهب الى افلاطون .

٢ - كلمات طيبات ، مكتوب ١٤ ص ٢٧

٣ - تاريخ سني ملوك الأرض ص ٦٤ ٤ - المسمودي ج ٢ ص ٢٢٦ والآثار الباقية ص ١٠٥

ومن المؤسف أن نسخة أوستا العربية هذه التي كانت موجودة إلى القرن الرابع من الهجرة ، كما صرح به أبو حمزة الأصفهاني ، قد فقدت ، ولم يبق لها أثر فليس دور الكتب الحالية الحاضرة ، وكل ما عندنا من الذي يسمى بأوستا ، هو جزء ناقص من أوستا العصر الساساني الذي وصل إلينا بواسطة القروس الزردشتيين المهاجرين إلى الهند . ونحن مدينون لسامي المشرق الفرنسي " آنك نيل " وتنحياتيه الملمية في معرفتنا بهذا الجزء ، ولما محتوياته ، فنجد على خمسة فصول (فائدها) منه نسخة من العصر الزردشتي ، والباقي ينطق بلسانه أنه دون في العصر الساساني أو بعده .

(سد باجوج وماجوج)

ها نحن قد فرغنا من البحث في شخصية ذي القرنين ، ولم يبق لنا إلا النظر في مسألة باجوج وماجوج ، فما ترى أي سد أريد به ؟ وأين تبحث عنه في أوراق التاريخ وفي خريطة الأرض الجغرافية ؟

وعليها أن نتذكر في معالجة هذا البحث أن القرآن ذكر أمين من السد بخصوصية

وهي

أنه أي السد ، بني في مكان ارتفعت الجبال كجدارين على جانبيه ، أي كان المكان

مشيقا جبليا .

وأن السد الذي أقيم به ، استخدمت فيه نهر الحديد (أي قطع الحديد) وأفرغ

عليها النحاس المذاب .

وعلى ذلك يجب

١ - أن نجد السد في ضيق جبلي ٢ - وأن يكون هو جدارا حديثا لا جدارا من

٣ - ويكون قد سد طريق الضيق الجبلي . || الحجر والاجر .

نهبنا الى هذه الأوصاف لأن مفسرينا غفرو النظر عنها ، فهم اذا سمعوا بوجود جدار في مكان ما ، سبق الى أذهانهم أنه هو الصمد الذي بناه ذو القرنين حتى أن المرحوم المير السيد أحمد (خان) من الباحثين المصنفين ، ذهب الى أن جدار الصين هو صمد ذي القرنين ، في حين أن هذا الجدار لا يمكن أن يكون ذلك بحال ، لأنه لم يكن في مضيق جبلي ، ولا استخدمت فيه قطعيات الحديد ، بل هو جدار من الحجر يمتد الى مئات من الأميال .

باجج وباجج :

ولنبعث عن باجج وباجج أولا : فاذا وجدناهم ، سهل علينا الوصول الى الصمد .

ذكر القرآن باجج وباجج في سورتين ، فقال في سورة الأنبياء " حتى اذا فتحت باجج وباجج وهم من كل حدب ينسلون " (١٦: ٢١) وفي سورة الكهف التي قصت قصة ذي القرنين .

ان كلمتي " باجج " و " ماجج " تدوران كأنهما حرفتان ، ولكلها نفسى أصلها قد لا تكونان حرفتين ، انهما كلمتان أجنبيتان اتخذتا الصورة العبرية ، فهما تنطلقان باليونانية ^{اليونانية} $\kappa\alpha\gamma\gamma\alpha$ و $\mu\alpha\gamma\gamma\alpha$ ($\mu\alpha\gamma\gamma\alpha$) وقد ذكرنا بهذا الشكل في الترجمة السبعينية للتوراة ، وراجعا بالشكل نفسه في مآثر اللغات الأوروبية . وقد ورد هذا الاسم لأول مرة في التوراة في كتاب الخلق عند ذكر خروج آدم من دابة نوح ، فقال " ولد لهابت بن نوح ، جبر ، وباجج ، ومادى ، ويونان وتيمال ، ومالك ، ونيراس " (١٠: ٢) .

ثم تكرر ذكرهم في الصحف الأخرى وقد ذكروا بصراحة وتعيين واضحين نفسى صحيفة عزريقال كما ستراء ، وكذلك جاء ت ثيو في مظهرهم في مكاشفات يوحنا نفسى

العهد الجديد •

فمن كان هؤلاء القوم ، ياترى ؟

الشواهد

لقد تضافرت ^{الشواهد} التاريخية على أنهم لم يكونوا الا قبائل همجية بدوية من السهول

الشمالية الشرقية ، تدفقت سهولها من قبل العصر التاريخى الى القرن التاسع

الميلادى نحو البلاد الغربية والجنوبية وقد سميت بأسماء مختلفة في عصور مختلفة ،

وهو عرف اسم منها في الزمن المتأخر باسم " مفر " في أوروبا ، وباسم التتار في آسيا •

ولاشك أن نوما لهؤلاء القوم ، كان قد انتشر على سواحل البحر الأسود ففى

سنة ٦٠٠ ق م • وأغار على آسيا الغربية نازلا من جبال القوقاز •

وقد سماه اليونان باسم " سى تيين " (وذكر بنفس هذا

الاسم في كتابة هارابوش باسطخر • ولنا أن نجم بأن هؤلاء هم الذين شكت قاراتهم

الشعوب الجبلية الى غروب • ففى السد الحديدى لمنعها •

القبائل المنغولية والبوادية :

سمى هذه البقعة الشمالية الشرقية من الأرض • " منغوليا " وقاطنها الرحالة

• " منغول " وتقول لك المصادر الصينية ^{الصينية} من أصل كلمة منغول ، هو " منكوك " (

(بالكاف الفارسية بعد النون) أو (منجوك) (بالجم الفارسية) وفى الحالتين

تقرب للكلمة مع النطق المسمى " ماكوك " (بالكافين الفارسية) والنطق

اليونانى " مكاك " (بالكافين الفارسية) • وبهذا تاريخ الصين عن قبيلة

أخرى من هذه البقعة ، كانت تعرف باسم " يواشى " (Yüeh-shi) والظاهر

أن هذه الكلمة مارالت بحرف عند الأم حتى أصبحت " ياجج " فى المبينة •

منقوليا مهد الشعوب القديمة :

ان الجزء المرتفع من الكرة الأرضية الواقع في الشمال الشرقي الذي يسمى الآن —
منقوليا وتركستان الصينية ، كان مهذا لشعوب قديمة لا تخص . كان مهنا بشرياً
تتدفق مياهه وتتجمع ، حتى اذا بلغت النهاية ، طفت وانصبت الى الغرب والجنوب .
وجدت الصين في الشرق منه ، وآسيا الغربية والجنوبية في غوه وجنوه ، وأوربا
في الشمال الغربي منه ، فما زالت سهول القبائل والشعوب تتدفق ، فهستوطن بعض
القبائل آسيا الوسطى والبعض الآخر يتقدم فحصل الى أوربا ، أو ينزل بآسيا الغربية
والجنوبية .

وكانت هذه القبائل بعد خروجها من مسقط رأسها ، وحط رحالها في البلاد
الجديدة ، تفقد خصوصياتها الأولى وتصطبغ بصبغة أوطانها الجديدة ، فتصير على
مرور الأيام شعوماً بنفسها . ولكن كان موطنها القديم لا تتغير أحواله ، ولا تزال
تنشأ فيه قبائل جديدة وتتدفق في دورها الى الخارج كأخواتها السابقة .

لا تتغير هذه البقعة بل تظل على حجمها القديمة ، ولكن للذين كانوا
يسكنون فيها يسكنون البلاد الأخرى ، يتحدون مع لم الزمن ، فتختلف حالتهم
الجديدة عن الحالة القديمة ، فينبأ كانت المديح تزدحم وترتل برؤيتهم فيستغلون
المجيدة من الحالة القديمة لهذا كمالهم فيهم وعملهم فيهم .
بالزراعة والصناعة ، ويعيشون حياة سهلة هنية ، كان اخوانهم في مسقط رأسهم
يننون على حالتهم الأولى من المهجبة والخشونة والقسوة ، ولذلك يظنون شعباً مخفياً
للمنحصرين .

الأدوار السبعة لخروج بأجن :

يسهل علينا أن نقسم زمن خروج هذه القبائل الى سبعة أدوار:

فالدور الأول منها كان قبل العصر التاريخي عندما بدأت هذه القبائل تهاجر من الشمال الشرقي ، وتنتشر في آسيا الوسطى .

وكان الدور الثاني في فجر التاريخ ، فنرى في ضوء معالم حياتين مختلفتين : حياة البداوة وحياة الاستقرار فتخلد القبائل المهاجرة إلى السكنة ، وتهاجر الحفاة الزراعية ، إلا أن سبولا جديدة لا تزال تتدفق من الشرق ، ومدى هذا الدور من نحو سنة ١٥٠٠ ق م . إلى سنة ١٥٠٠ ق م .

وبدأ الدور الثالث : من سنة ألف قبل الميلاد ، فنجد قوما هجما من البدو في بلاد الخزر والبحر الأسود . ثم نرى قبائل " سي تيهين " أخذت تظهر على مسرح التاريخ من سنة ٧٠٠ ق م . وتهاجم آسيا الغربية .

وكانت الحضارة الآشورية قد بلغت أوج مجدها ، ومادت مدينة نينوا وبابل على آسيا كلها . قال هيرودوتس " أن حدود الآشوريين الشمالية كانت عرضة لغارات قبائل " سي تيهين " المستمرة ، وكانت هذه الحدود تمتد إلى جبال أرمينيا ، فكانت قبائل سي تيهين تجتاز مضيق القوقاز ، وتشن الغارات المدمرة على شواطئ السهول ، حتى أن جيوشا كبيرة منها تقدمت سنة ٦٢٠ ق م ، ووصلت إلى نينوا ، دأست في طريقها إيران الشمالية . ويرى مؤرخو اليونان أن هذا الحادث كان من أهم أسباب سقوط نينوا (١) .

أما الدور الرابع : فينبغي أن نجعله في سنة ٥٥٠ ق م . - الزمن الذي ظهر فيه غوروش وتكونت مملكة مادا وفارس المتحدة ، فتغيرت الظروف فجأة ، وأمنست آسيا الغربية من هجمات قبائل سي تيهين .

وكان الدور الخامس : في القرن الثالث قبل الميلاد ، تدفق فيه سيل جديد للقبائل المنغولية وانصب على الصين . وقد سعى مؤرخو الصين هذه القبائل بـ " هيسو " *(Hsiao)* . وقد حرف الاسم فأصبح " هن " فيما بعد .

وفي هذا العصر بنى امبراطور الصين ، شين هوانغ تى ، ذلك الجدار العظيم الذى اشتهر بجدار الصين لصد هجمات هؤلاء المنغوليين ، والذى لا يزال يوجد الى يومنا هذا . وقد بدأوا ببنائه سنة ٢٦٤ ق م . وأتموه فسي مدة عشر سنين . ولما صد هذا الجدار حملات المنغول من الشمال والغرب توجهوا الى آسيا الوسطى من جديد .

وكان الدور السادس : في القرن الرابع الميلادى عندما رفعت هذه القبائل رأسها فى أوربا بعد أن حظيت بقاء كبير ، هو اتها () وقضت على الامبراطورية وعلى المدنية الرومانية معا .

وقد كان الدور الأخير - الدور السابع - في القرن الثانى عشر الميلادى فاحتشدت جموع عظيمة من القبائل فى بلاد منغوليا ، وخربت بزقانة جنكيز خان فقتلت على الحضارة الصينية وخربت بغداد - مدينة السلام .

فتسلم ما سبق أن معظم آسيا الغربية كانت عرضة لهجمات قبائل من تهمين المنغولية من القرن السادس قبل الميلاد ، وأن الزمن الذى وقعت فيه هذه الهجمات يشتهر ، هو زمن غوروش ، فلا بد من أن تكون هذه القبائل (من تهمين) هي التى سميت باسم بأجوج وأجوج ، ولصد غاراتها بنى ذو القرنين ، أى غوروش ، السد الجديد فقلل هذا السد الطريق الذى كان يسلكه هؤلاء الهجاء لشن غاراتهم على آسيا الغربية ، فأصبحنا لا نسمع لهجماتهم خبرا بعد .

من أى طريق كانت هذه القبائل تسكن غاراتها ؟ أخبرنا مؤرخو اليونان بأنه كان مشيقا في جبال القوقاز ، وقد ظل هذا الضيق بابا مفتوحا على المغيرين زمنيا طويلا ، فان كان غوروش يريد صون آسيا الغربية من غاراتها ، فما كان له إلا أن يسد هذا الباب ، وقد فعل ذلك بيننا " سده الحديدى " .

نبوءة حزقئيل ومأجوج :

ظهر النبي حزقئيل في الزمن الذى كان اليهود يحبون حياة الأسر في بابل ويقول التاريخ اليهودى بأن بخت نصر هو الذى جاء بحزقئيل الى بابل مع قوميه اليهود فعاش الى زمن غوروش . وقد وجدت في السفر المنسوب اليه نبوءات خوطبت بها الشعوب المختلفة ، منها نبوءة في شأن مأجوج ومأجوج كذلك وهى كما يلى :

" وصى كلام الرب قائلا ، يا ابن آدم ول وجهك شطر جوج وتنبأ ضدّه ، نعم شعار جوج الذى هو رئيس ارض مأجوج ، وسك وتعال ، فقل له ، ان الرب يقول لك ، انى أصبحت ضدك وانى أبدلك ، وأجرع فككت ، وأطرد جميع جندك وفرسانك الذين يرتدون الملابس المعككة ، ويحملون السيوف والتروس ، وأطرد معهم الفارس ، وكسوف والقوط كذلك " .

وبلى هذا من التفاصيل ما يتلخص في أن جوج يقدم من الشمال ناهبا مدميرا ولكن يحل بالقوم الدمار ، فهيلكون في " وادى المسافرين " الواقع في شرق البحر ، وتبقى جثثهم تتعفن الى زمن طويل ، ثم يدفنها الناس ليخلو لهم الطريق (٣٨ : ٣٩)

وصف جوج في النبوءة بأنه رئيس " سك " و " توال " فكان النبوءة صورت موقع " مي تهيبن " الجغرافى بهذا الوصف ، فليس " سك " الا ما نسميه الآن بـ " بوسكو " أما توال ، فهى بلاد البحر الأسود المرغمة .

ثم جاء في النبوءة " انى أردك " وهذا هو ما وقع على أيدي غوروش ، فانه أقفل

الطريق بسده على قبائل من تميم ، فارتدت الى وراعيها ، ثم قال : ان جيش
 مأجوج كله يخرج ، وكذلك يبرز جيش فارس ، ويشارك معه القوط (غاله) أهلها .
 ويكون هلاك مأجوج في " وادي الساعرين " وهذا هو عين ما وقع عند ما هاجم
 دارايوش ، بلاد اوربا ، فقد خرجت لمعاوته جميع قبائل من تميم ، ولكنه تقدم
 الى الدانوب يريد أن قتلهم هو تقتل ، وقتت جثث المقتولين منهم تتدفق على
 ساحل البحر الأسود لمدة من الزمن .

ذكر كل هذا في صحيفة حزقيال كهوثة ، الا أن البعثة الحضرية يزعمون أنه
 الحق بها بسده ما شهد العالم هجوم دارايوش وما تبعه من الحوادث ، وقد ذهبت
 الطائفة من سراج التواءة في العصر الحاضر الى أن المقصود من مأجوج ، هو قبائل
 (١)
 من تميم .

سد مأجوج ومأجوج :

لنبين الآن من المكان الذي أقام به غوروش بسده .
 توجد في البقعة الواقعة بين بحر الخزر والبحر الأسود سلسلة جبال فوقار كأنها
 جدار طبعي ، وقد سد هذا الجدار الجبلي ، الطرق الموصلة بين الشمال والجنوب
 الا طريقا واحدا بقي مفتوحا ، وهو ضيق في وسط سلسلة الجبال ، يوصل بين
 الشمال والجنوب . يسمى هذا الضيق في أيامنا هذه بضيق داربال ، ويشار اليه
 موضع في الأطلال الحاضرة بين فولادي كهوكز (Vladikavkaz) وفيلس ، حيث
 يوجد الى الآن جدار حديدي من قديم الأزمان .

ولاريد أن هذا هو الجدار الذي بناء غوروش ، إذ تنطبق عليه الأوصاف التي
 وصف بها القرآن منذ ذي القرنين قائلا انه استخدمت في بنائه نهر الحديد " قطعه "

وأثرغ عليه النحاس بعد أن أذابوه لتتصل مفاصله فلا يبقى به خلل ، وقال انه بنى بين
جدارين جبليين .

وهذا هو ما نراه في مضيق داربال : جدارين جبليين شاهقين أقيم بينهما هذا
السد الحديدي الذي أقفل بامتاله بالجدارين الطريق الذي كان مفتوحا بينهما .

وان الكتابات الأرمنية لها أهمية كبيرة في المسألة لانها لقرب المكان أصبحت بمنزلة
الشهادة المعتبرة ، وقد سعى هذا السد أو الجدار الحديدي في اللغة الأرمنية مسين
الدهور السالفة بـ " بهاك غوراي " و " كابان غوراي " ومعنى الكلمتين واحد ، وهو
" مضيق غوروش " أو " ممر غوروش " ، ولا يخفى أن " غور " جزء لاسم غوروش بالترتيب

أفلا يثبت هذا أن غوروش هو الذي بنى الجدار ، والله نسبه من قديم الزمان ؟
وهناك شهادة أخرى لا تقل في أهميتها عن الأولى ، وهي شهادة لغة ميلاد
جورجيا التي هو القوقاز بمينها ، فقد سعى هذا المضيق باللغة الجورجية من الدهور
الغابرة بـ " الباب الحديدي " وترجمه الأتراك الى لغتهم بـ " دامركو " وهو
مشهور الى الآن عندهم (١) .

أما المؤرخون القدماء ، فأول من ذكره منهم ، هو الرحالة اليهودي الشهير يوسف
الذي كان عائدا في القرن الأول الميلادي ، ثم ذكره بعد أن عاينه بنفسه المؤرخ
بروكوبس (Procopius) في القرن السادس الميلادي ، وذلك أن القائد الروماني
بلي سارس (Belisarius) لما أغار على هذه الجهة في سنة ٥٢٨ م
كان الرجل معه فشاهد الأرض وما عليها .

وقد سبق لنا أن أشرنا الى " نهر سائرس " الذي يثبت وصول غوروش المسمى
هذه البقعة ، فهناك في القوقاز أنهار تتيج كلها من هذه الجبال ، وقد سعى واحد
منها بنهر سائرس أي غوروش . وقد وثقت المصادر الأرمنية والجورجية هذا الاسم ، وذكره
كذلك بعض السواح الأوربيين من القرن السادس عشر .

١ - أ.ف. الكاتب التركي وأستاذ التركية والفارسية في سنت بطربورغ ، كاظم بك في سنة ١٨٤٥
تاريخا لهذه الجهات باسم " دريند نامه " وترجم الكتاب الى الانجليزية باسم تاريخ
دريند ، فراجعته عن ٢١

فهذا انتوني جن كين (Anthony Jinkinson) الذي أرسلته
شركة تجارية في لندن إلى إيران من طريق روسيا سنة ١٥٥٧ م ، وهو يذكر هذا
النهر في رحلته بأنه يسمى بنهر سائرس (١) .

ثم أن جميع الخرائط التي وضعت لهذه الجهات في القرن الثامن عشر ، ذكرت
" نهر سائرس " هذا بدوارة تامة .

جدار درند النجری وباب الأبواب :

ويوجد هناك عدا جدار " خنق داربال " المسمى جدار آخر من الجدران
في نفس هذه القلعة ، ووجوده تمثدت المسألة بمضي التفتيش ، فلابد من مطالعتها .
توجد على ساحل بحر الخزر الفرس بلدة ، اشتهرت من الممر الساساني باسم
" درند " وسمتها العرب بـ " باب الأبواب " وهي واقعة في نفس المكان الذي انتهت
إليه سلسلة جبال القوقاز واتصلت بساحل بحر الخزر . وقد وجدنا هنا جدار عجمي
من الزمن القديم ، يمتد من ساحل البحر ، ويرتفع على منحدر إلى الجبل صاعداً
إلى مرتفعاته ، حتى يبلغ طوله نحو ثلاثين ميلاً .

وتفصيل ذلك أنك تجد قبل وصولك بلدة درند ، جداراً يحد الطريق كاه من
الساحل إلى مرتفعات الجبل ، فلا يمكنك الدخول في البلدة إلا من باب في الجدار
نفسه ، وكذلك إذا خرجت من البلدة ، وجدت جداراً آخر مثل الأول يحد الطريق ،
إلا أنه به كذلك باب يمكنك من التقدم ، ويمتد الجداران جنباً لجنب إلى مرتفعات
الجبل ، وينتص الفصل بينهما كلما تقدما ، حتى يندمج عند الساحل بمسافة يسار .
وفي هذا الفصل تقع البلدة ثم ينتص الفصل بعد ميلين كذلك فلا يجاوز مائة يسار
وهنا تنتهي سلسلة الجدارين فيصيران جداراً واحداً .

وتمت هذا الجدار إلى ثمانية وعشرين ميلاً ، وينتهي على المرتفعات العالية
من الجبل . وقد اشتهرت سلسلة الجدارين عند الفرس باسم " دواره " والمكان الذي
انتهت إليه هذه السلسلة أقيمت فيه قلعة .

وقد مدت هذه السلسلة جميع الطرق الموصلة بين الشمال والجنوب مدداً معكسماً
لأنها توغلت إلى داخل البحر فعدت طريق الساحل كاية ، ثم امتدت فوق الجبل
إلى ثلاثين ميلاً ، فعدت سائر الطرق التي وجدت في منحدرات الجبل مدداً تاماً
وليس أحد أن يفتقر من الشمال إلى الجنوب إلا بطريق واحد وهو الطريق الذي
يفتحه البابان في سلسلة الجدار نفسه .

ومن المسمى أن هذا الجدار العظيم وجد قبل الاسلام ، وسمى المكان في العصر
 الساساني بـ " دريند " لوجود الجدار به ، أي باب الملكة المتقل ، وقد ذكر الهمطري
 والمسعودي ، والقدس ، وياقوت الحموي ، والقزويني وغيرهم من المؤرخين والجغرافيين
 العرب هذا المكان باسم " دريند " قائلين انه كان يحد أهم مكان في العصر الساساني
 لأن المغيرين ما كانوا يستطيعون مهاجمة ايران الشمالية الا من هذا الطريق ، فسمكان
 المكان مقاحا للملكة الايرانية ، يملكها من الذي يملكه . (١)

ولما فتح العرب هذه الجهات في القرن الأول من الهجرة ، أدركوا أهمية المكان
 كالمحاصرين ، فسموه بـ " باب الأبواب " عوضاً من " دريند " وسماء البعض " بيمباب
 العنبر " أو " باب الترك " لأنه كان الطريق لفارات هذه الشعوب ، والاسم ترجمته
 حرفية لاسم النوى " كاسيين يورثا " أي " باب العنبر " .

من الذي بنى جدار دريند ؟

ولنرى الآن من الذي بنى جدار دريند ؟

إن مفسرينا لما كانوا يجهلون سد مضيق داريال ، وكان هذا الجدار أمام أعينهم
 ولم يحسبهم بدون ترو بأنه هو سد ذي القرنين ، كما فعل البيهناوي وغيره ، واليه
 ذهب الرازي كذلك ، وكان حرياً بهم أن يروا حل ينطبق على هذا الجدار وصف من
 أرواف سد ذي القرنين ؟ ولما كان الأمر ليس كذلك ، فلا يجوز أن يقال انه السد
 المذكور في القرآن .

ونذكر القرآن أن ذا القرنين وصل الى مكان قام على جانبه جداران جبليان

فعمل بوجد في دريند جداران جبليان ؟

ويقول أن ذا القرنين طلب زهر الحديد وأذاب النحاس ، ولكن جدار دريند يبنى

من العجر ، ولا يوجد فيه للحديد ولا للنحاس .

١ - ذكر جغرافيو العرب هذا المكان باسم " دريند " الا انه كان اشتهر باسم " باب الأبواب " .
 قال بعض الكتاب هذا الاسم ، وقد ذكره ياقوت في معجم البلدان بهذا الاسم . في " بنسند " .
 مشهورة بأنها بمعنى " أغلق " فيقولون " دروازة بند " بمعنى أغلق الباب أو الباب مضيق .

وفوق ذلك بنى ذو القرنين سده بين جداهن جبليين • ليمد به الطريق بينهما •
 ويوجد هنا في دريوند جدارا متدا الى ثلاثين ميلا • ولا يسد ميرا جبليا مبل بمحصن
 من ساحل بحر الخزر الى مرتفعات الجبل أى انه بين ساحل البحر والجبل لا بين جبليين •
 ولكن لما وجد جدار ضيق داريال أو سده وجدار دريوند في بقعة واحدة من الأرض • لا
 فصل بينهم • الا مسافة قليلة اختلط الأمر على الناس • وما يثير العجب أن بعض
 المؤرخين المصريين كذلك وقعوا غريسة باردة لهذا الخلط •

نسبة الجدار الى الاسكندر والأشكال التاريخية :

ذهب مؤرخو العرب بناء على الروايات الساسانية الى أن الذى بنى هذا الجدار
 — جدار دريوند — هو أنو شروان • فقد ذكر المصردى والحموى تفاصيل البناء ونقل
 عنهما المؤرخون بعدهما (١) •

ولكن يوجد هنا اشكال • وهو أن المؤرخ يوسف الذى كان عائدا في القرن الأول
 ميلادى • وبروكوبيس (الذى وجد في القرن السادس الميلادى)
 قد ذكرا جدارا في هذه الجهة • كما أشرنا اليه آنفا غير أنهما يقولان كذلك ان الذى
 بناه هو الاسكندر المقدونى • في حين أن حوادث الفتح الاسكندرى معروفة وليست بخافية
 عن التاريخ • فلم يرو قط أن الاسكندر قدم الى هذه الجهة أو بنى جدارا بها • ومن
 المعلوم أن مثل هذه الحصون والمعاقل لا تشيد الا اذا دعت اليها القواضى الدافعة •

ومن المعلوم كذلك أن الاسكندر لم تصادفه داعية كهذه في سائر حروبه • صحيح
 ان هذه المنطقة كانت تابعة للإمبراطورية الايرانية • ولكنه هاجمها من طريق الشمال
 وتوجه من اربان الى بنجاب (الهند) • ولما قتل راجما من بنجاب دهم الموت في
 باهى • كما هي الظروف التى اضطرته — والعلة هذه — الى تشييد مثل هذه المعاقل
 في بلاد القوقاز ؟ وان كان بعيدا • فمضى كان كذلك ؟ ولماذا أغفل جميع مؤرخيه
 ذكر عادت هام كهذا الحادث ؟

ثم هنالك اشكال آخر • ان كان جدار قوقاز بناء أنو شروان • فكيف يكون ذلك ؟

لقد أجمع المؤرخون على أن عصر أنوشروان كان من سنة ٥٣١ م إلى سنة ٥٢٩ م ، وعلى ذلك لا يمكن أن يكون بنى شيئا قبل هذا الزمن ، ولكن يوسف يذكر الجدار في القرن الأول وهو كوبيس ، يشهد بوجوده في سنة ٥٢٨ م ، فعلم من هذا أن أنوشروان لم يبن هذا الجدار .

وقد زار هذه الجهة المؤرخ الأمريكي المصري ، السيد ، في سنة ١٩٠٤ فكتب رواية يوسف في رحلته واقترح من هذه قائل ، لم يشهد الاسكندر هذه المناظر ، ولكن بناها بمعنى قواده . ثم انهم ربما زادوا فيها في العصر الساساني .

هذا كلام مردود ، يرد على نفس الأساس الذي رفض عليه قول القائلين بأن الاسكندر بناها . وذلك لأنه ان كان شيدها بمعنى قواد الاسكندر ، فمن كان هو ؟ ولماذا شيدها ؟ ولم أعمل مؤرخو ذلك العصر ذكر هذا الأمر الهام ؟ لقد وجدت رواية - مهما كانت واهية - في شأن الاسكندر ، ولم يوجد شيء مثل ذلك في شأن قواده أبدا .

نشأ هذا التمسك كله لأن الناس لم يميزوا بين جدار مضيق داريال وجدار دريشد ، فاختلط الأمر عليهم . لقد كان محتاج المصلحة في القول بأن الذي بنى الجدار الأول - جدار مضيق داريال - هو غوروش ، ولكن الناس لم يفعلوا ذلك ، فأخذوا يندلسون تارة إلى الاسكندر وقواده ، وتارة أخرى إلى أنوشروان ، وكان جديرا بهم أن ينظروا إلى غوروش الذي هو صاحب الجدار ، لا غيره .

حل المشكلة :

يوجد في البقعة جداران ، ليس من الضروري أنهما بنيا في زمن واحد . فأول ما ينبغي لنا أن نفعله ، هو أن نقرر أي جدار ذكره المؤرخ يوسف وبروكوبيس : أهو جدار مضيق داريال أم جدار دريشد ؟ فان كان هو جدار دريشد ، فلا يمكن أن يكون بناء أنوشروان .

فإذا نظرنا إلى الشواهد التاريخية من هذه الجهة ، يتجلى لنا أن يوسف وبروكوبيس لا يقصدان بما ذكرناه ، جدار دريشد ، بل إنما يريدان به جدار مضيق داريال الذي

بناء غوروش في القرن الرابع قبل الميلاد ، أي قبل يوسف بنحو خمسمائة سنة ، وقبل بروكوبس
 بألف سنة ، الزمن الذي لم يكن لجدار دريند فيه أثر ولا خبر . أما الجدار الذي ذكره
 المؤرخون بعد عصر يوسف و بروكوبس ، وهو الذي سمي بجدار الخنز كذلك ، فهو بلا ريب
 جدار دريند ، لأن مضيق جدار مضيق داريال ، لا يمكن أن يطلق عليه اسم جدار الخنز بحال .
 لقد ارتفع الاشكال الآن بدفع هذه الشبهة الطفيفة التي تتعلق بكون أنوشروان هو الذي
 بنى الجدار ، ولم تبق حاجة لتضعيف مقاله بمرغو العرب الذين كتبوا ما كتبوا مستندين السي
 روايات المصريين الساساني . وقد أطنبوا في ذكر تفاصيل البناء ، فذكروا مثلاً كيف وضع أساس
 الجدار في داخل البحر ، وما هي الوسائل التي لجأ إليها البناءون لذلك . ليس منا أن نرتاب
 في صحة ما ذكره ، والاقرب إلى الصواب أن أنوشروان هو الذي بنى جدار دريند ، وأن هذا
 الجدار ما كان يمكن أن يوجد في عصر بروكوبس الذي زار المكان قبل أنوشروان بثلاث سنوات .
 ولك أن تقول ، أن كان الأمر كما ذكرت ، فلماذا نسب يوسف و بروكوبس جدار مضيق داريال
 إلى الاسكندر ؟ . والجواب أنهما إما خدعا بالشهرة العامة أو وقعا غريسة للشبهة التاريخية .
 لقد راجت أساطير كثيرة بعد فتح الاسكندر في عامة الناس ، فاعتادوا أن ينسبوا إليه
 الاعمال العجيبة ، والأمور الخارقة للمادة . وقد تسربت هذه الأساطير إلى الكتب التي ألقت
 في سيرة الاسكندر ، ولما ترجمت هذه الكتب إلى العربية ، راجت الأساطير بين المسلمين كذلك
 فالنظام لما ألف منظومته ((سكندرنامه)) استخدم هذه المادة ، وجعل من التاريخ قصة
 متممة ، فيمثل على الظن أن أسطورة كانت اشتهرت في شأن مضيق داريال الحديث كذلك ،
 فنقلها يوسف وهذا جدوه بروكوبس ، ولذلك نجد المؤرخين غيرهما يذكرون معاقل هذه الجهة
 ولكن لا ينسبونها إلى الاسكندر ، فهذا تسمى تسمى (Tacitus) ولیدس (Lydus)
 يقولان بأن الرومان يسمون المكان بباب الخنز ، دون أن يزعموا أن الجدار أو المعقل شيدت
 في عصر الاسكندر .

ثم أن بعض المؤرخين وقموا في خطأ عظيم بشأن جهال القوقاز ، ذكره استرابو في جغرافيته
 ونمى بذلك أنهم توهموا الجبال الواقعة في شرق بحر الخزر بأنها

خسروا

جبال القوقاز ، فليسلسيا الى تلك جميع خصوصيات هذه الجغرافية • لا ريب أن الاسكندر
مربطك الجبال في طريقه الى الهند ، وأقام بها مدة • ولا يبعد أن يوسف بن سناء
على هذا الوهم - ظن أن الاسكندر قدم الى بلاد القوقاز أيضا ، فبنى هذا الجدار
بأموره • وقد أصاب المستر جيكنس في قوله • ربما كان هذا الوهم هو أساس الرواية القائلة
بأن الاسكندر شهد الجدار •

والحاصل ان التفاصيل المقدمة قد أزيلت الاشكالين معا •

الحالة السياسية في القرن السادس وأهمية دورند :

ثم نرى هنا أمرا واضحا جليا وهو أن الاسكندر ما كان يهيمه أمر حدود ايسيران
الشمالية والدفاع عنها • أما أنو شروان فكان يهيمه ذلك • ولذا اضطر الى تشييد جدار
دورند •

لقد كان في عصر غوروش أكبر خطر على آسيا الغربية من جهة قبائل من تهمين •
وكان طريق غاراتهم من مضيق داريال • ولكن الوضع الجغرافي كثير يحد ألف عام • فلم
يبق خطر من قبل من تهمين • ولكن حلت محله أخطار أخرى • كان أكبرها من جهة
الامبراطورية الرومانية الشرقية في بيروطة التي كانت تتنافس الامبراطورية الفارسية • وتحاول
القضاء عليها • وهي لم تكف بطرق آسيا الصغرى المطوقة في حروبها • بل كانت
تتأخر هذا الطريق كذلك • ثم كانت هنالك القبائل التركية في سهول بحيرة بوزال وحوض
الدر الذي انتشرت جماهيرها في الشمال • وكانت هي تهاجم الجهات الشمالية من
الامبراطورية الفارسية فكان لزاما أن يحصن هذا المكان باهتمام كبير • وعلى ذلك شييد
أنو شروان • جدار دورند وسد به هذا الطريق على وجه المهاجمين •

x x x x x x x x x

x x x x x x x

x x x x x

x x x

x

ملحق ج

المراجعة التي قام بها أمام المحكمة الانجليزية

المراقبة التي ألقاها أمام المحكمة الانجليزية

هذا هو نص المراقبة التي ألقاها أمام المحكمة التي كانت تحاكمه بتهمة إثارة الشعب نحس معها ومع يولانا أزداد أخطر وأجراً ساعات من أيام وسنى جهاده وبطولته .
قال : وكأنه يخاطب الأجيال ، ولقى درساً بليغاً لكل من ينشد كرامته وكرامة بلاده ولا يبالي بما يدغمه من شين :-

أيها القضاء :

انى كنت عازماً على ألا أقدم للمحكمة بياناً ما ، لأنها مكان لا رجاء لنا فيه ، ولا طلب منه ، ولا شكوى اليه ، وإنما هى كنتمج الطريق الى المنزل ، لا بد من قطعة للمسايل ، ولذا نقف فيه وقفة على كره منا ، والا لدخلنا السجن توا .

ان الجمعية الوطنية ، وجمعية الخلافة ، وجمعية العلماء ، قد أبحن تقديم بيان الى المحاكم ، لا للدفاع بل لاعلام الأمة بالحقيقة ، بيد انى ما برحت أشير على الناس بأن يؤثروا الصمت على الكلام ، وأن يقاطعوا المحاكم مقاطعة تامة ، وذلك لأنى أرى أن كل من يقدم بياناً لدحض التهمة وكشف الحق - وان كان قصده به اعلام الجمهور - لا يعلم من الظنة انه يجوز أن يكون فى نفسه أدنى هوى للتخلص من المقاب ، أو فى أهاق قلبه أقل رجاء فى عدل المحاكم ، مع أن سبيل ((تارك التماون)) مستقيم طير ، لا ينهض أن توسعه الظنون والشبهات .

اليأس التام من المصل :

ان ((اللاتماون)) نتيجة لليأس التام من الحالة الحاضرة ، وهذا اليأس هو الذى ألجأ الأمة الى أن تغيرها ، وتعبدل غيرها بها ، فكان من يقاطع الحكومة ويأبى معاونتها ، يعلن بأنه يئس من عدلها وحبها للحق ، وأنه لا يعترف بها ، بل يمدحها حكومة فاصبة جائرة وغير شرعية . لهذا يود إسقاطها وتحطيمها . أئيمد هذا يرجع القهقري ، فينتظر منها أن تتصفه كحكومة عادلة صالحة للبقاء والدوام ؟ .

وان غضنا الطرف عن هذه الحقيقة الثابتة ، فان السعى للتبرئة من التهمة ، ليس الا فعلاً منا وانكاراً للحقائق . ان كل يصير يعلم أنه لا رجاء فى المحاكم أن تتصف وتعدل فى

الحالة الحاضرة ، لا لأن رجالها لا يحبون العدل بل لأنها سائرة على نظام لا يستطيع معه حاكم أن ينصف أولئك الذين لا تريد الحكومة نفسها أن تتصفهم !
وانى عنهما أصرح بأن خطاب ((اللاتماون)) ليس مع الأفراد والآحاد ، بل مع الحكومة ونظامها ومبادئها .

موقف أصحاب الحق أمام المحاكم والقضاة

ان هذه الحالة مثل سائر حالات عصرنا ليست بغدة ، فالتاريخ شاهد على أنه كلما طغت القوات الحاكمة ، ورفعت السلاح في وجه الحرية والحق ، كانت المحاكم آلات مسخرة بأيديها لتفتك بها كيف تشاء . وليس بغريب فان المحاكم تلك قوة قضائية ، وتلك القوة يمكن استعمالها في العدل والظلم على السواء . فهي في يد الحكومة العادلة أعظم وسيلة لاقامة العدل والحق ويهد الحكومات الجائرة أنقطع آلة للانتقام والجور ومقاومة الحق والاصلاح .
والتاريخ يدلنا على أن قاعات المحاكم كانت ساحر للفظاعة والظلم ، بعد ميادين القتال ، فكما أريق الدماء البريئة في ساحات الحروب ، حوكت النفوس الزكية في ساحات المحاكم ، فشنت وعلبت وقتلت وألقت في غياهب السجون .
وليس هناك صفة صالحة محبة للحق من الأنبياء والحكماء والعلماء والصالحين ، الا وراها قد وقفت كالجناة والجرمين في قاعات المحاكم أمام القضاة .

نعم ان كر الأيام ومر العشى قد محا كثيرا من مساوى العهد القديم ، فلا يوجد الآن شئ من المحاكم الرومية للقرن الثاني المسيحى . ولا محاكم التفتيش السرية ، التى كانت في القرون المتوسطة ، ولكنى لا أستطيع الاعتراف بأن عصرنا هذا قد نجا من تلك المواقف النفسية التى كانت تعمل في تلك المحاكم .

حقا ان تلك الأبنية التى كانت مكامن للأمرار الرهيبة قد دكت دكا . ولكن من ذا الذى يقدر أن يقلب تلك القلوب التى تكن فيها الأسرار المخيفة لحب الذات والظلم ؟

قفى عجيب ولكنه عظيم :

ان جدول مظالم المحاكم ومظالمها طويل عرى . تلك المظالم التى لم يفرغ التاريخ الى الآن من البكاء منها ، فترى فيه اسم المسيح (عليه السلام) الانسان الكامل الذى أوقف مع اللصوص في محكمة أجنبية .

وسقراط الحكيم الذي اضطر الى شرب كأس السم ، لأنه كان أصدق رجل في بلاده .
وكذا فلورنس غيليلو الذي لم يكذب مشاهداته العلمية ، لأنها كانت جنائية في عيني
القضاة والمحاكم .

وقد وصفت المسيح بالإنسان الكامل لأنى أعتقد أنه إنسان . ولكن الملايين من الناس
يمتقدون أنه فوق هذا ..

اذن ما أعجب قفص الجناة .. وما أعظم شأنه .. انه موقف للصنفين معا (الأبرار
والأشرار) حتى أنه كان لا تقا بهذا الوجود العظيم ..

حسدا وشكرا

وانى اذ أتدبر التاريخ العظيم لهذا الموقف ، وأرانى قد عرفت بالوقوف فيه ، تسبح
روحى بحمد الله ، ويلهج لسائى بشكره من غير قصد منى ، وهو وحده يعلم ما أجده من
الجدل والابتهاج ، اذ أحسننى فى هذا القفص مسودا للملوك والسلطين المظالم ، فأيسر
لهم فى قصورهم المريحة تلك المسرة والراحة ، التى يرقص لها قلبى فى صدرى ؟ وباليست
الإنسان الخافل والمكاف على هواه يشمر بنفحة منها . وانى أقول حقا : انه لو أدركها
الناس ، لتعوا المشول فى هذا المكان ، ولنذروا النذور لأجله .

قانون الحقيقة

انى كت عازما على السكوت فى المحكمة ، ولما أحضرت فيها ، ورأيت الحكومة تقدم فى اثبات
جريمتى الخطبتين اللتين أقيتا فى بعض مجامع (كلكتا) ، وهما لا يحتويان على جميع الأمور
التي مازلت أكررها فى جميع خطبى ، ورسائلى ومقالاتى ، التى تمددوا الحصر ، والتى ان قدمت
كانت أنفع لمقصدها ، علمت أنها عاجزة حتى عن تهئية ذلك المستند الذى يعتبر فى هذه الأيام
كافيا لانزال العقاب ، مع شدة رغبتها وحوصها على سجنى ، فقيرت مقصدى ، وقلت بأن الحلة
التي كانت مانعة من الكلام أصبحت موجهة له . فأردت أن أثبت بلعائى الأمر الذى لا تستطيع
الحكومة اثباته مع علمها به ، وشدة رغبتها فى اثباته .
وانى أعلم أن قوانين المحاكم لا توجيه على ، ولا تضطرنى الى الاعتراف من تلقاء نفسى .

ولكن قانون الحقيقة فوق هذه القوانين الوضعية ، وهو الذى يعوقنى الى ما سأقوله . ان ليس من الحق أن نذر شيئا مستورا ، لأن الخصم لا يستطيع اثباته .

سنة تنازع البقاء :

ان الاستبداد الذى ابتليت به الهند ، نوح من ذلك الاستبداد الذى يصيب الأمم فى طور ضعفها ووهنها . وهو من طبعه يفضى الحركة الوطنية والحرية ، والمطالبة بالحقوق بغضا شديدا ، لأنه يعلم انها اذا نجحت سقطت قوته الظالمة وانمحق وجوده الفاحش . وما من وجود يجب سقوط نفسه وزواله مهما يكن زواله ضروريا فى عين الحق والانصاف ، فالتدافع بين الحرية والاستبداد ، (تنازع للبقاء) و (تزاحم فى الحياة) كل من الفريقين يجد للفوز والبقاء ، الأمة تريد أن تنال حقها المنصوب ، والاستبداد يأبى عليها ، ولا يريد الترحيل عن مقامه ، ولا تشرب عليه ، لأنه وان كان وجوده خلافا للحق - يدافع عن نفسه وحياته ، وليس لنا أن ننكر مقتضيات الطبيعة فكما يسمى الخير لبقائه ، يسمى الشر أيضا ، ومهما يكن ملوما فى نفسه ، لا يلام على رغبته فى الحياة .

وقد بدأ التزاحم فى الهند ، بين هاتين القوتين القويتين : الحرية والاستبداد - فليس يهدح أن تكون الحرية والمطالبة بالحقوق جنابة فى عين الاستبداد . وأن يكون محاربا - وجوده الباطل جناة وأثمة ، وأهلا للمقاب الشديد .

انى اعترف :

فما دام الأمر كذلك ، فانى أعلن على مسمع من الحكمة والحكمة بأننى أنا قد ارتكبت هذه الجناية ارتكابا ، واقترفتها اقترافا ، وان كانت الحكومة لا تعلم مغفلم الآن انى من أولئك الجناة الذين بذروا بذور هذه الجناية فى قلوب أمتهم ، ووقفوا حياتهم على سقيها وتسميتها وتسميرها . بل انى - ولا فخر - أول معلم فى الهند ، دعا أمته من اثنتى عشرة سنة الى هذه الجناية دعوة عامة ، وحول وجهتها فى خلال ثلاث سنوات ، عن المبودية التى كانت الحكومة زينتها لها ، الى الحرية التى قد اشرفت شخصها الآن ، ولن تتكف أبدا .

فان كنت أتما فى زعمها فاعلمينى بما تشاء . فيها اذا اعترف بالجناية بصدر رحب ، ولسان طلق ، غير جزع منها ، ولا نادم عليها . لأن هذا هو ما كنت اتوقعه وأعرفه من قبل .

وانى لا أنتظر من الحكومة الا الغلظة والقسوة ، لأنى — وان ألفتها تدعى العصمة من الخطأ والزلل ، ولا تعترف بذنوبها — أعلم أنها تدعى أبداً أنها مثل المسيح فى لينه وحنانه ! فاذن كيف أنتظر منها أن تعجل أعدامها وتحبهم كلصدقائها ؟ وأعلم أنها لا تعاملهم الا بتلك المعاملة التى نراها منها الآن ، والتى مازال الاستبداد يختارها لمحق الحرية والحق ، وخنق أصحابه وحماة .

فالشدة والغلظة من الحكومة شئ " طبيعى " لا ينبغى لنا أن نشكو أو نغضب منه ، بل على كل من الحزين أن يحمل على مكانتهما ، حتى يفصل الله بينهما وهو خير الفاصلين .
(ثم قال بعد هذا : انه لم يقبض عليه لأجل الخطبتين اللتين قدمتا الى المحكمة ، بل لتخلو للحكومة " كلكتا " كيلا يقطع احتفال ولى عهد انجلترا عند قدومه اليها ، وتضمسف الحركة الوطنية والاسلامية . ثم ذكر أعد ما فى الخطبتين وهو ما يلى : —
أعد ما فى الخطبتين :

ان الحكومة التى تأسست على الظلم لظالمة ، وهى اما أن تتوب من ذنوبها وتطأها ، وتضع للحق ، واما أن تزول من الوجود .

أيها الناس (ان كنتم تتألمون لاخوانكم الذين قبض عليهم فعلى كل منكم أن يسأل نفسه الآن . هل هو راغى بأن تظل هذه الحكومة قائمة فى بلادنا ، كما كانت عند القبض على اخواننا ؟ اذا كنتم تريدون تحرير بلادكم من رق المبودية ، فلا يوجد الا طريقة واحدة ، وهى :
أن لا تدعوا الفرصة لأعدائكم المكارين لاستعمال أسلحتهم القتالة التى عدهم بنغير حساب .

ان بعض الناس يظن أن الخطيب اذا فاه بمثل هذه الأقوال يحتاط لنفسه ، والا فانه بالحقيقة لا يقصد بها شيئاً ، ولكنى أيها الاخوان أعتقد أنه ليس فيكم أحد يحسب أولئك الذين يتمسبون لأجلكم خوائف من السجن أو الاعتقال ، أو مخلصين لهذه الحكومة الظالمة فى نفسها وقوتها ، حين يقولون : ان أعمالنا يجب أن تكون بالأمن والنظام .

لا ، لا ، لا ، أن هذا لا يتصور أبداً ، بل الحق الذى لا مراء فيه أنهم يقولون ذلك ، لأنهم يرون نجاحكم متوقفاً على الأمن والنظام ، مادمت لا تملكون تلك الآلات الجهنمية التى تتسلح بها هذه الحكومة ، وانما الأسلحة التى لديكم هى الايمان والضمير وقوة التضحية ، فاستعملوها فى

وجهها تتجحره • والا فلا نجاح لكم بالأسلحة المادية •

أيها الناس : ان كنتم تريدون أن تعرقلوا الحكومة بوهة من الزمان فطرق ذلك كثيرة • ولو كنت لا سمح الله - من المحبين للحكومة ليحتبها ودعوتكم اليها • ولكن الذي أريده منكم هو (الحرب الحرب) والحرب لا تنتهى فى يوم واحد • بل تمتد الى يوم الفصل • وما أدراك ما يوم الفصل ؟ اليوم الذى اما أن تمحق فيه هذه الحكومة الجائرة • واما أن غنى ثلاثمائة مليون من النفوس البشرية •

الاعتراف فوق الاعتراف :

ان كانت هذه التصريحات جثاية فانى معترف بأن قلبى قد اشتغل بها • ولسانى نطق بها • وانى أنا الذى صرحت بها أمام عشرات الألوف من الناس • ليس فى هاتين الخطبتين فقط • بل فى خطاب أكثر من أن تعد وتحصى • بل ما برحت أقول أكبر وأشد منها • ذلك بأننى أعتقد أن التصريح بها واجب على • ولم يمننى من أداء الواجب كونه معاقبا عليه بقانون ١٢٤ من القوانين الهندية (١) بل انى لأجدنى الآن مدفوعا الى التصريح بها أمام المحكمة • ولا أزال قائلا بها مادام لسانى بين لسانى • وروحى فى جثمانى • وان لم أفعل ذلك أكن ظالما لنفسى • وعاصيا عند الله • وعد الناس لجمعين •

الحكومة الحاضرة (ظالمة)

نعم انى قلت أن الحكومة الحاضرة ظالمة • وان لم أقل هذا فماذا أقول يا ترى ؟ وأيم الله انى لأعجب كيف يطلب منى أن أسى شيئا بغير اسمه • وأن أدعو الأسود بالأبيض ؟ ان ما قلته هو أهون ما يجب أن يقال فى هذا الباب • ان لا أطم حقيقة ملفوظة أخف منه • لا ريب انى ما زلت أقول : انه ليس أمام الحكومة الا أن تتوب من آثامها • وتغير خططها • وترجم عن ظالمها • فان لم تستطع فهدمها وسحقها • وليت شمرى ماذا يقال غير هذا ؟ الشر اما أن يصلح • واما أن يزول • وهل بينهما طريق آخر ؟ •

(١) مادة ١٢٤ خاصة بالذين يحرضون على كراهية الحكومة بأى واسطة من وسائل النشر والصور

أو الكلام أو الخطابة (المترجم) •

ان هذه الحقيقة قديمة المهد ، طويلة المنز ، لا يضاهاها في الكبر الا الجبال ، والبحار ،
وانى مادمت اعتقد ان هذه الحكومة من اولها الى آخرها شر على شرفكف أدعولها ، وأقول :
دوسى ولا تصلحى ؟

لماذا اعتقد هذا ؟

نعم لماذا اعتد . أنا وملايين من أبناء وطنى واخوان دينى ؟ الجواب أصبح الآن واضحا
جليا ، حتى يصح أن يعبر عنه بقول الشاعر الانجليزى (ملتون) : " أنه بعد الشمس أضح
شيء " ، وأجلى محسوس " على أنى اصرح عنها بأنى اعتقد ذلك لأنى هندی ، ولأنى مسلم ،
ولأنى انسان .

الحكم الشخصى ظلم بالذات :

انى اعتقد ان الحرية حق طبيعى لكل انسان ولكل أمة ، فطرة الله التى فطر الناس
عليها ، وليس لشخصها أو حكومة أن تستعبد عباد الله ، وتتخذهم خولا (خدما) . وسيم
الاستعباد والرق بأى اسم شئت . غير أنه على كل حال استعباد ورق . ومشينة اللس
وناموسه يقتات .

ولنى لأجل هذا لا أعرف بالحكومة الهندية ، بل أعبها حكومة غير شرعية ، لأنها
مستبدة طاغية ، استعبدت البلاد ، وقهرت الصياد ، وداست الشرائع ، وخانت المواثيق ،
ليسخطها الشعب ، وسحبها الحق ، فهي معدومة فى نظر الأمة ، وان كانت موجودة بقسوة
السلح ، وأرى واجباتى الدينية والوطنية والانسانية تطالبنى بأن أحرر بنى جلدتى من رقها
وهوديتها الشائنة .

كلام خداع :

ولا يقطع كلامى (بالاصلاحات الادارية) ، ولا الترقى التدريجى ، كلمات خطتها الحكومة
وزخرفتها ، لتخدع البله والحقى . أما أنا فلا أخدع بها ، اذ الحرية فى اعتقادى حق طبيعى
للانسان ، وليس لأحد أن يحدد ويقسم فى تأدية الحقوق . وان مثل الذى يقول أن أمة تنال
حريتها تدرجا ، كمثل الذى يقول للدائن يرد اليك الدين قسطا قسطا . نعم ان لم يستطع
أخذه دفعة واحدة ، يضطر الى قبوله بالأقساط ، ولكن لا يسقط به حق الأخذ مرة واحدة .

(الاصلاحات) وما هي (الاصلاحات) وان هي الا كما قال الفيلسوف الروسي (تولستوى)

ان اتيح للمسجونين انتخاب مجائهم بالأصوات ، فانهم لا يصيرون به أحرارا •

الحكومة الحاضرة حسنة أو قبيحة ؟ سؤال ثانوى •

أما السؤال الأساسى فهو : هل وجودها حق وشرى ؟ •

انى لأعتقد أن مثل هذه الحكومة الأجنبية المتسلطة باعتبار أصل خلقتها غير شرعية ، وأن نفس

وجودها ظلم وشر ، فهى لو لم ترتكب جميع تلك الفظائع التى ارتكبتها بهذه الكثرة ، لكانت تسمى

استبدادى ظالمة وجائرة ، ولكن لقبها وشاعتها أنها موجودة — نعم ، ونعترف بحضارتها أم كان

الاستبداد ، ولكن يظل وجودها على كل حال ظلما وغير شرى ومثاله لو تسلط أحد على بيتنا ،

إداره ادارة حسنة ، وعمل أصلا صالحة ، فانه بهذه الحسنة لا يصير تسلطه حقا شرعا (

ان الشر يصح أن ينصت ويقسم بالكلم والكيف ، فنقول : كم هو وكيف هو ؟ ولكن لا يصح نعتنه

ونفسه بالحصن والقبض • فلا نقول : أحسن هو أم قبيح ؟ نعم يقال : سرقة قبيحة وسرقة أتبع

ولكن لا يقال : سرقة حسنة وسرقة قبيحة () وهكذا الاستبداد ، فالى لا أمقطع أن انصوبه

حسنا وشرعا فى حال من الأحوال لأنه بذاته وجوده قبيح وشر وغير شرى •

نعم ، سألنا من نرج من الاستبداد أخف وطأة ، وأقل ظلما ، وأكثر ليانا من غيره ولكن

الاستبداد الذى دهم الهند لم يبق عند قبحه الخلق ، بل مازال يكتب السبائح فوق المنابر

ومنكرات تلو المنكرات ، وظلمات بعضها فوق بعض ، فكيف لا يحمل ظلمه ، ولا يشهر بقبحه ، ولا

يعدد النكير عليه ؟ •

الاسلام والاستبداد :

انى مسلم ، ولأنى مسلم وجب على أن أندد بالاستبداد وقبحه ، وأشهر بمساوئه ، وأبطله

أنا المسلم لا يعترف بالحكومة الشخصية ، ولا بحكومة عصبة من الموظفين ينتقدون روايتهم ، لأن

نظام كامل للجمهوريه ، وانه جاء ليرد الى النوع الانسانى حرمة المفضوعة التى كان اغتصبها المظلم

الاستبداد ، والحكومات الأجنبية ، وأنروءاء البروجانيون ذروا الأهواء ، والرجال الأقياء من الجماعة •

وقد كانوا يحتشدون أن الحق للقوة والتسلط والقهر والظلمة ، ولكن الاسلام بمجرد ظهوره أطل

أن الحق ليس فى القوة ، ولا هو القوة • بل الحق هو الحق ، وأنه ليس لأحد من البشر أن يستعبد عباد الله

وإذا لهم وحسبهم ، ثم قضى على سائر الامتيازات والمناصب المؤسسة على الملكية القومية والوطنية قضاء تاما ، وبين أن الناس كلهم متساوون في الانسانية ، متساوون في الحقوق ، متساوون في نفس الحياة ، وليس اللون أو الجنس أو النسل معيارا للفضل والحسب ، وإنما معياره العمل وحسده ، فأعلاهم قدرا ، وأكرمهم حسبا أحسنهم عملا ، وأتقاهم لربهم (بإيها الناس انا خلقناكم من ذكر و أنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله اتقاكم) .

الاسلام نظام جمهوري :

ان الاسلام أعلن حقوق الانسان قبل انقلاب فرنسا بأحد عشر قرنا ، وليس مجرد إعلان ، بل وضع نظاما صالحا للجمهورية الحقة بالغاية في الكمال انتهاء ، ومتناسبا معه في الاثنان كما قال المؤرخ الشهير (فيبون) ، فكانت حكومة نبي الاسلام وخلفائه الأربعة جمهورية كاملة ، تتشكل برأى الأمة وانتخابها ونهايتها ، ولذا توجد في مصطلحات الاسلام كلمات جامعة لهذا الغرض ، لا توجد مثلها في لغة ما ، حيث أنه لم يعترف بوجود ملك منصب ، وعوضه بمنصب لرئيس الجمهورية سماه بالخلافة ، وهي في اللغة : النيابة ، وهي صاحبها بالخليفة أي النائب الذي لا يملك قوة ولا نفوذا بنفسه ، كذلك اختار لنظام الجمهورية كلمة الشورى ، ووصف المسلمين بقوله (وأمرهم شورى بينهم) والشورى ضد الاستبداد ، تقريره أن جميع أعمال الحكومة يجب أن تكون برأى الجماعة ومشورتها ، لا برأى شخص وحده ، فأى اسم للجمهورية ورئيسها ونظامها يكون أحسن وأجمع من هذه الأسماء الاسلامية .

البيروك्रेसي الوطني والاسلامي ظلم أيضا :

فمادام الاسلام ينهى المسلمين عن قبول حكومة اسلامية لم تتشكل برأى الأمة وانتخابها ، فما تكون قيمة هذا (البيروك्रेसي) الأجنبي في نظر المسلمين ؟ وهب أنه لو فهم الآن في الهند حكومة اسلامية على نظام شخصي أو تكون (بيروك्रेसية) لطائفة من الوطنيين ، فإن الاسلام يوجب على أن أسميها أيضا ظالمة وعائرة ، وأسمي لخرايها ونقضها كما أفعل الآن .

واستبعد في ذلك ، فعلماء الاسلام ما زالوا يجاهدون بفقد الولاية ، وحاسبون المستبد من المسلمين أنفسهم . واني لأعترف بكل الأسف أن نظام الاسلام الجمهوري لم يعمل به طويلا ، بل أملت القيصرية والكسرية ولاية المسلمين ، فمالوا عن الطريق ، وآثروا التشبه بغيرهم وكسرى ، واستنكفوا

من التشبه بأسلافهم الخلفاء الراشدين ، الذين عاشوا طول حياتهم في ثياب رثة كأحد الناس ،
بيد أنه لم يخل عهد من أصحاب الحق الذين ناقشوا الملوك والسلاطين في استبدادهم وتحملوا
بجميع تلك المصائب التي صبت عليهم في هذه السبيل بوجه مستبشرة .

الوظيفة الملية للمسلمين لعلاء الحق وإعلانه :

ولعمري ان المطالبة من مسلم بأن يحكم من الحق ، ولا يحق الظلم ظلما ، مثل مطالبته
بأن يتنازل عن حياته الإسلامية ، فان كنتم لا ترون لأنفسكم أن تطالبوا أحدا بأن يرتد عن دينه ،
فليس لكم أن تطالبوا مسلما بأن يمتنع من قوله للظلم : أنه ظلم ، لأن معنى كلتا المطالبتين واحد .
ان التصديق بالحق وإعلانه عنصر ضروري للحياة الإسلامية ، فان فصل عنها فقدت أكبر ما يمتاز
به ، لأن الاسلام أسس قومية المسلمين عليه ، وجعلهم شهداء الحق على العالم كله ، فكما يتوجب
على الشاهد ألا يتوانى في ابداء شهادته كذلك يتحتم على المسلم ألا يمتنع في إعلاء الحق ،
ولا يبالى في أداء غرضه بمصيبة وإبشلاء ، بل يصدع به حيثما كان ، ولولا في دونه الحفام .

وتصير هذه الفريضة أوكد وأوجب عند ما يعود الظلم والجور ، ويمنع الناس من إعلان الحق
بالصنف والشدة ، لأنه ان أجزى السكوت عنه خوفا من بطش الجبارين ، الذين يقدمون الألسنة ،
ويختنون الأبدان بأنواع من المذاب ، يصبح الحق في خطر دائم ، ولا يبقى لظهوره وقبائه من
سبيل ، مع أن ناموس الحق فوق القوة ، وليس يحتاج في ثبوته الى تصديق القوة ، ولا يفسد
سكوت الناس عنه قاطبة ، بل أنه يظل على كل حال حقا ، حقا عندما نجد في سبيله ما نحسب
وختشيس ، وحقا عندما يكون دونه الموت الزؤام ، وهل تصير النار بردا والثلج نارا لأننا نحسب

ونسجن ؟ ١١

وجوب الشهادة بالحق وخطر كتمانها :

لهذا أنبىء المسلمون في كتابهم أنهم شهداء الحق في أرض الله ، فالشهادة بالحق
والصدق به وتبليغهم الملية ، وديانتهم القومية التي ميزتهم عن سائر الأمم الفائرة والآتية

(وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس) وقال لهم نبيهم صلى الله عليه وسلم

" أنتم شهداء الله في الأرض " .

فالمسلم مادام مسلما لا يستطيع كتمان هذه الشهادة ، وان حبس أو قتل ، أو ألقي جسده في

التيار المتأججة •

وأخيرا القرآن بأن من يكتم شهادته يوم يفتن من الله ، وماواه جهنم وكفى المهاد ، وكذلك أنبا أن الأمم الكبيرة لم تهلك إلا لأنها كتمت الحق " أن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بوءنا للناس ^{في الكتاب} وأولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون " وقال " لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون كانوا لا يتناهون عن منكرهم فجعلوه لهفسا مما كانوا يفتعلون " •

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر :

ولذا نجد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أكثر الفرائض الإسلامية ، وقد أخبر القرآن أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أساس لمظنة المسلمين وفخارهم القوي ، وأنهم خير الأمم لأنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وأنهم إن حادوا عنه فقدوا سؤددهم ومجدهم الشايع (كتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله) وقال النبي عليه الصلاة والسلام (تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف وتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عذابا من بعده ثم لتدعنه ولا يستجاب لكم) (الترمذي) •

وأما أداء هذه الفريضة فعلى ثلاث درجات في ثلاث حالات مختلفة ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم (من رأى منك منكرا فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان) (رواه مسلم) •

وحيث أننا نسوء حظنا لا نقدر في هذه البلاد على تغيير منكورات الحكومة بأيدينا فالتأثير إلى الدرجة الثانية التي في وسعنا ، وهي : أن نعلن بالاعتناء بظلمها ومساوئها ، ونسدد بها لساننا ونشهر بها لساننا •

الركان الأربعة :

أن القرآن وضع أساس الحياة الإسلامية على أربع دعائم : (الإيمان • العمل الصالح •

التوصية بالحق • التوصية بالصبر) •

فالإيمان والعمل الصالح معناهما ظاهر ، أما التوصية بالحق فهي أن يوصي كل منا أخيه

بالتزام الحق والتوصية بالصبر : هي أن يتواصيا بتجشم المبالك ، وتحمل النوازل في سبيل الحق . وإنما قوت هذه بقلك لأن وقوع المحن والمشاق أمور لا مخلص منه في سبيل الحق (والحصران الانسلان لقي خمر الا الذين آمنوا وحملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر) .

التوحيد الاسلامي والأمر بالمعروف :

التوحيد أساس الاسلام وقطب رحله . وهذه الشرك الذي أشرب المسلمون بفسه في قلوبهم . ومعنى التوحيد أن يوحد الله في ذاته وصفاته . والشرك أن يجعلوا له سبحانه شريكا في ذاته وفي صفاته .

والتوحيد يعلم المسلمين أن الخوف والخشوع لا يكون الا لله الواحد العظيم . أما غيره فلا يخاف منه ، ولا يخشع له ، وأن من يخشى غير الله فهو مشرك به ، ويجعل غيره أهلا للخوف والطاعة ، وهذا ما لا يجمع مع التوحيد أبدا .

الاسلام من أوله الى آخره دعوة عامة الى التوحيد والبسالة والجرأة والاستهانة بالموت في سبيل الحق ، والقرآن يكرر هذا مرة بعد أخرى (ولا يخشون أحدا الا الله وكفى بالله حسيبا) (١) (من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش الا الله) (٢) (ولا يخافون لومة لائم) (٣) (إنما لكم الشيطان يخوف أوليائه فلا تخافوهم وخافون ان كنتم مؤمنين) (٤) (ليس الله بكاف عبده ، ويخوفونك بالذين من دونه ومن يخلل الله فما له من هاد) (٥) .

والرسول صلى الله عليه وسلم يقول (خير الشهداء حمزة بن عبد المطلب . ورجل قام الى امام جائر فأمره ونهاه فقتله) رواه الحاكم عن جابر على شرط الصحيحين ، وفي رواية (أفضل الشهداء كلمة حق عند سلطان جائر) رواه أبو داود وابن ماجه والتهذيب . وقد كان يأخذ العهد ممن أصحابه أن يقولوا الحق أينما كان ، كما رواه عباد بن الصامت وأخرجه الشيخان .

- | | |
|-----------------------------|-------------------------------|
| (١) آية ٣٩ سورة الأحزاب . | (٢) آية ١٨ سورة براءة . |
| (٣) آية ٥٤ سورة المائدة . | (٤) آية ١٧٦ سورة آل عمران . |
| (٥) آية ٣٦ سورة الزمير . | |

وقد أبيضت عين الدهر ولم تر مثل هذه النحايا الكثيرة العظيمة في أعلا كلمة الحق
التي قدمتها الأمة الإسلامية في كل دور من حياتها • فتراجم علمائها وشايعها وساداتها
هارة عن هذه النحايا •
ألا فلتعلم الحكومة الانجليزية أن المسلم الذي أمره به أن يرحب بالموت الأحمر ،
ويتغافل في اللجج الدواهي والكوارث ، ولا يقبل السكوت عن الحق • لا يخيفه قانون ١٢٤ من
المقويات الهندية • ولا يردده عن دينه وأداء فريضة • إذ أكبر عقاب في هذا القانون حبس
المُرء طول حياته • والمسلم يرحب به ويتفناه أن كان لا يد منه في سهل الحق •
لا يوجد في الاسلام قانون ١٢٤ :

ان تاريخ الامة الاسلامية ينقسم الى دورين مختلفين :

الدور الأول دور نبي الاسلام صلى الله عليه وسلم وخلفائه الأربعة : وقد كان النظام
الجمهوري فيه قائما بأتم معانيه • فكانت الأمة متمتعة بالجمهورية الحقة • ترفع في ريسان
المساواة الاسلامية العامة • وتمشي عيشة هنيئة في ظلال الحرية الكاملة • لا تخيفها الملكية
المللقة • ولا تثقل كواهلها القيصرية والكسروية •
خليفتها ورئيس جمهوريتها من آحادها • تنصبه بأيديها • وتحاسبه في جليل الأمور
وعقيرها • ولا تسمح له أن يجحف بها • أو يستبد برأيه دون رأيها •
وهو نفسه يكون من أعدل الناس وأفطنهم وأهمهم في وظائف الخلافة والسكوة • يعيش
عيشة الفقراء والمساكين • يسترجعده بأطمار بالية • ويسكن في كوخ صغير • ولم يكن إذ ذاك
بدار الخلافة الاسلامية القصر الأبيض لجمهورية أمريكا •

وقد كان المسلمون في هذا الدور يقاطعون الخلافات ويناقشونهم وهم على المنابر يخطبون^(١)
حتى ان عجزوا من عجائز العاصمة (المدينة) كانت تتجرا عليهم وتخاطب الواحد منهم على مسامحة
من الناس أن ترفع عن الحق نقومك بسيوفنا والخليفة لا يؤاخذها ولا يعاقبها على ذلك • ببناية

(١) يشير بذلك الى المرأة التي قاطعت سيدنا عمر وهو يخطب على المنبر ينهى عن التغالى
في المهور فذكرته بقوله تعالى (وآتيتهم إحداهن قنطارا) فرجع عمر عن كلامه وقال
اغداً عمر وأصابته امرأة ...

الثورة ، بل يشكر الله ويحمده أن وجد في الأمة السنة صادقة في إعلان الحق كهذه الصبورة (١) .
وقد قام الخليفة مرة يوم الجمعة خطيباً وقال : اسمعوا واطيعوا فرد عليه رجل قائلاً :
والله لا نسمع ولا نطيع لأنك خنت الأمانة ، وأخذت من القماش أكثر من سهام المسلمين . فنسألك
الخليفة بآبائه (عهده الله) فشهد أن آباءه لم يخن المسلمين وقال : بل انى قد أهانتهم من
من القماش ، ومن سهمنا كان الرداء الطويل الذى يلبسه .

وقد كان سير الأمة هذا مع ذلك الخليفة الذى كانت تخشى من رهبة جلود الملوك فى عقر
دارهم ، وتختر أمام هيئته عروش فارس ومصر ، وتزلزل من بأسه جدران القسطنطينية ، ولكن منع
هذا كله لم يكن هدف الحكومة الإسلامية قانون ١٢٤ يحاكم به الخليفة معارضيهم من أصحاب الحق .
أما الدور الثانى فدور الحكومة الشخصية والملكية المطلقة :

وقد بدأ باستيلاء بنى أمية على الخلافة قهراً وعوة ، فانقلبت الجمهورية الإسلامية فيه على
رأسها ، وحل الاستبداد والقهر محلها ، وظهر مكان الخليفة الإسلامى ملك تكلل بتاج الملك ،
وترفع على عرش الحكومة المذهب ، ولكن استبداد هذا الدور مع سائر عقوباته المبرحة من التسلط
بالباطل ، والحبس فى السجون ، والقتل بالسيوف ، لم يستطع أن يصد المسلمين عن إعلان الحق ،
ويقعدهم عن الذود به وحمايته ، بل نالت ألسنتهم حادة نالقة فى إعلانه ، ونفوسهم متهيئة لتقديم
المهج فى سبيله .

وأصعاب الرسول صلى الله عليه وسلم عاشوا ظلوا ينددون بظالم الولاة : ويشهرون به ،
ويطالبونه بتغييره ، وجعل الحكومة شورى من المسلمين .

ثم قام مقامهم التابعون الذين تربوا فى مجورهم ، وتخلقوا بأخلاقهم ، فكانوا غير خائفين
لغير سلف ، ماهابوا غير الله ، ومادأهوا أعداء من خلقه ، بل كانوا يجهرون بالعق ، ويقولون
للجبابرة أو الطواغيت : أصلحوا أو زولوا .

وقد عد الامام محمد الفزالى أولئك الصحابة والتابعين الذين كانوا الى زمن الخليفة

(١) المشهور أن الذى قال ذلك رجل وعمر رضى الله عنه يخطب فى أول توليته الخلافة : وشعور :
ان رأيتم من اعوجاجا فقومونى . فقال رجل من المستمعين والله لو رأينا فيك اعوجاجا
لقومناه بصيوفنا ، فلم يثر عمر بل قال : أحمد الله أن وجد فى أمة محمد من يقوم عمر بسند

هشام بن عبد الملك ، وأنكروا ظلم الأمراء ، وطالبوهم بحكومة الشورى والنيابة فبلغ عددهم أكثر من ثلاثة وعشرين رجلاً .

وانى أنه عفا أنه لا يوجد فى شريعة الاسلام قانون ١٢٤ من القوانين الهندية الذى كان يمنع هؤلاء . الأخبار من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإعلان الحق وتبحيح الظلم .
هشام وطاووس :

طلب الخليفة الأموى الشهير هشام بن عبد الملك (طاووس اليماني) يوما الى مجلسه ، فلما دخل عليه لم يحلم عليه بامرة المؤمنين ، ولكن قال السلام عليك يا هشام ، وجلس معه ، وقال : كيف أنت يا هشام ؟

فغضب هشام غضبا شديدا حتى عم بقلته ، وقال له : يا طاووس ما الذى حملك على ما صنعت ؟ فقال له : وما الذى صنعت ؟ فازداد غضبا وغیظا ، وقال : (سلمت عليك بحاشية بساطى ، ولم تقبل يدى ، ولم تسلم على بامرة المؤمنين ولم تكنى ، وجلست بازائى بشير اذننى ، وقلت : كيف أنت يا هشام : ١١)

قال طاووس : أما ما فعلت من خلعت على بحاشية بساطك فانى أغلصها بين يدى رب المزة كل يوم خمس مرات .

وأما قولك لم تقبل يدى فانى سمعت على بن أبى طالب رضى الله عنه يقول : لا يحل لرجل ان يقبل يد احد الا امراته من شهوة ، أو ولده من رحمة .

وأما قولك : لم تسلم على بامرة المؤمنين فليس كل الناس راغبين بامرتك ، فكروا ان اكذب .
وأما قولك جلست بازائى ، فانى سمعت أمير المؤمنين عليا يقول : اذا أردت أن تنظر الى رجل من أهل النار فانظر الى رجل جالس وحوله قوم ليام .

فقال هشام : (عظمى) . فقال : سمعت من أمير المؤمنين على رضى الله عنه أن فى جهنم حيات كالافلال ، وقوارب كالبنغال تلدغ كل أمير لا يحذر فى رعيته ثم قام .

وكان مالك بن دينار ينادى فى جامع البصرة (ان الله دفع الى هؤلاء الملوك غنا صلبا صحاح فاكلوا اللحم ، ولبسوا الصوف ، وتركوا عظاما تغمق) .

أبو حازم وسليمان :

وخطب أبو حازم سليمان بن عبد الملك الجبار بقوله : (ان آباءك قهرروا الناس بالسيف ، وأخذوا هذا الملك غوة من غير مشورة من المسلمين ، ولا رضا منهم ، حتى قتلوا منهم مقتلة عظيمة . وقد ارتحلوا . فلبو شعرت بما قالوا وما قيل فيهم .

فقال له رجل من جلسائه : بش ما قلت .

قال أبو حازم : (ان الله قد أخذ الميثاق على العلماء ليعينته للناس ولا يكتمونه .

وقال سليمان : وكيف لنا أن نصلح هذا الفساد ؟ قال أن تأخذه من ماله فتشبهه في

حقه .

فقال سليمان : (ومن يقدر على ذلك ؟)

فقال : من يطلب الجنة ، ويخاف من النار .

فقال سليمان : ادع لي . فقال أبو حازم : اللهم ان كان سليمان وليك فيسره لشخير

الدنيا والآخرة ، وان كان عدوك فخذ بناصيته الى ما تحب وترضى .

فقال سليمان : ارضني . فقال أوصيك وأوجز : عظم ربك ، ونزهه أن يراك حيث نهاك ،

أو يفقدك من حيث أمرك .

وكان سميد بن السبب التابعي الكبير يقول على رؤس الشهداء في ولاية زمه (يجيمسون

الناس وشبهمون الكلاب) .

وقد ظل علماء الاسلام على هذه الديانة بعد عهد خلفاء بني أمية غير هياهين ولا وجلين

في عهد الدولة العباسية .

سفيان والمنصور :

فهذا المنصور الخليفة العباسي القهار لما قال لسفيان الثوري : ارفع اليها حاجتك . رد

عليه قائلاً : اتق الله فقد ملأت الأرض ظلماً وجوراً .

وهرون الرشيد :

ولما استقر على منصة الخلافة (هرون الرشيد) الخليفة العباسي الشهير كتب الى سفيان

الثوري كتاباً بيده يقول فيه :

((من عبد الله هرون الرشيد أمير المؤمنين إلى أخيه سفيان بن سعيد بن منذر • أما بعد :

فيا أخى قد علمت أن الله تبارك وتعالى آخى بين المؤمنين • وجعل ذلك فيه وله • وأعلم أننى قد واخيتك مؤاخاة لم أحرم بها جعلك • ولم أقطع منها ودك • وأنى منطو لك على أفضل المحبة • وأعلم يا أبا عبد الله أنه ما بقى من أخوانى وأخوانك أحد إلا وقد زارنى • وهنأتى بما صرت إليه • وقد كنت بيوت الأموال • وأعطيتهم من البر وأثر السنية ما فرحت به نفسى • وقرت به عينى • وأنى استطأتك فلم تأتى • فكتبت إليك كتابا شوقا منى إليك هديدا • وقد علمت يا أبا عبد الله ما جاء فى فضل المؤمن وزيارته ومواصلته • فإذا ورد إليك كتابى فالحمل الحمل)) •

فهمل يحلم اللورد ((ريدج)) من كان هذا الرشيد الذى يكتب إلى عالم من علماء المسلمين بهذه اللهجة اللينة ؟ أنه قد كان يحكم ربح النكرة الأرضية • ويخاطب قيصر الروم فى كتاب منسـه إليه ((بيا ابن الكلب)) كما صرح به المؤرخ جين الانكليزى • ثم هل علم بما رد به ذلك العالم عليه ؟ أن لم يعلم فليسمع منى جوابه • ثم يتدبر فيه • فإنه يجلى له ما خفى عليه من حقيقة الاسلام • وجراءة المسلمين فى إعلان الحق • ويبين له أن ما تطلبه حكومتنا لا ينال • وأن المسلم لا يمتنع من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ولو فجع فى النفس والمال •

قد كان من حديث سفيان أنه لما أتاه الرسول بكتاب الخليفة • كان فى مسجد الكوفة ومعه أصحابه • فرس إلى الرسول الكتاب فلما رآه ارتعد وتباعد منه • كأنه حية عرضت له • ثم أدخل يده فى كفه • ونفها بمصاحبه • وأخذ الكتاب فقلبه • ثم رماه إلى من كان عنده • وقال : ((ياخذكم بقرؤ • فأنى استغفر الله أن أمس شيئا منه ظالم بيده • فلما فرغ من قراءته قال : ((اقلبوه واكتبوا إلى الظالم فى ظهر كتابه • فقيل له : يا أبا عبد الله انه خليفة • فلو كتبت إليه فى قرطاس نقى ؟ فقال اكتبوا إلى الظالم فى ظهر كتابه • فان اكتسبه من خلال فسوف يجزى به • وإن كان اكتسبه من حرام فسوف يصلى به • ولا يبقى شىء منه ظالم عدنا • فيفسد علينا ديننا • ثم قال : اكتبوا :

كتاب سفيان إليه :

((من المبد المذنب سفيان بن سعيد بن منذر الثورى إلى المبد المفسور بالآمال

هرون الرشيد الذى طلب حلوة الايمان •

أما بعد : فاني قد كتبت اليك أعرفك أنه قد صرمت عليك ، وقطعت ودك ، وقلبت موضعك فانك قد جعلتني شاهدا عليك ، باقرارك على نفسك في كتابك بما هجمت به على بيت مال المسلمين ، فانفتحت في غير حظه ، ثم لم ترض بما فعلته وأنت ناهي ، حتى كتبت للمسي تشهدني عن نفسك ، أما اني قد شهدت عليك أنا واخواني الذين شهدوا قراءة كتابك ، وسنؤدي الشهادة عليك غدا بين يدي الله تعالى " ياهرون " هجمت على بيت مال المسلمين بغير رضاهم ؟ هل رضى بفعلك المؤلفة قلوبهم والعاملون عليها في أرض الله ، والمجاهدون في سبيل الله وابن السبيل ؟ أم رضى بذلك حملة القرآن وأهل العلم والأراذل والأيتام ؟ هل رضى بذلك خلق من رعتك ؟ فقد ياهرون مثرك وأعد للمساءلة جوابا ، وللبلاء جلهابا " ، وأعلم أنك ستقف بين يدي الحكم المدل ، وقد رزئت في نفسك ، إذ سلبت حلالة العلم والزهد ، ولذيق القرآن ومجالسة الأخيار ، ورضيت لنفسك أن تكون ظالما ، وللظالمين اماما ، ياهرون قعدت على الحرير ، ولبست الحرير ، واسبلت سترا دون بابك وتشييت بالحجة بسرب العالمين ، ثم أقعدت احفادك الظلمة دون بابك وسترته ، يظلمون الناس ولا ينصفون ، أفلا كانت هذه الأحكام عليك وعليهم قبل أن تحكم بها على الناس ؟ " .

فكيف بك ياهرون غدا اذا نادى النادى من قبل الله تعالى وذاك مغلولتان اليه منك ، لا يفكهما الا عدك وانصافك . الظالمون حولك ، وأنت لهم سابق وامام الى النار ، كاني بك ياهرون وقد أخذت بغير الحق الخلق ، موردت المسلق ، وأنت ترى حسناتك في ميزان غيرك ، وسبائك غيرك في ميزانك زيادة عن سبائك ، بلاء على بلاء ، وظلمة فوق ظلمة ، فاحفظ بوصيتي ، واتمظ بموعظتي التي وعظتك بها ، وأعلم اني قد نصحتك وما أبقيت لك في النصيح غاية والسلام " .

فلما وصل هذا الكتاب الى هرون أقبل يقرؤه ودموعه تتحدر من عينيه ، وقرأ وشبهه ثم لم يزل كتاب سفيان الى جنب هرون يقرؤه عند كل صلاة حتى توفي . ولم يكن العلماء والائمة هم الذين يأمرهم بالمعروف وينهون عن المنكر وحدهم ، بل كان يوجد من دهما المسلمين وقاهمهم من يؤدي هذه الفريضة بكل شجاعة ومهابة جاش .

المنصور حول الكمبسة :

(فبينما كان الخليفة المنصور المباسي يطوف بالبيت إذ سمع رجلا عند الملتزم يقسول :
اللهم انى أشكو اليك ظهور الهنى والفساد فى الأرض ، وما يحول بين الحق وأهله من
الظلم والطمع) فدعاه المنصور وقال : ما هذا الذى سمعتك تقول عن ظهور الهنى والفساد
فى الأرض ؟ وما يحول بين الحق وأهله من الظلم والظلم ؟

فقال الرجل : الذى دخله الطمع حتى حال بينه وبين الحق ، وأصلح ما ظهر من
الهنى والفساد فى الأرض ، أنت ، قال المنصور : وكيف يدخلنى الطمع والصفراء والبهنا
فى يدى والحلو والحامض فى قهضتى ؟

قال : وهل دخل أحد من الطمع ما دخلك ؟ أن الله استرطاك أمور المسلمين
وأموالهم ، فأفقت أمورهم ، واهتست بجمع أموالهم ، وجمعت بينك وبينهم حجابا من الجص
والآجر ، وأبوابا من الحديد وحجبة معهم السلاح ، ثم سجنك نفسك فيها منهم ، وجمعت
عمالك فى جمع الأموال وجبايتها ، واتخذت وزراء وأعوانا ظلمة ، أن نسبت لم يذكر لك ، وإن
ذكرت لم يعبئك ، وأقربتهم على ظلم الناس فى الأموال والكراع والسلاح ، وأمرت بالادخل
من الناس ألا فلانا وفلانا ، نفر سيئهم فافتسروا على ألا يدخل اليك من علم أخبار النسا
شئ ، إلا ما أرادوا ، فامتلت بلاد الله بالطمع بنها وفسادا ، وصار هؤلاء القوم شركاءك فى
سلطانك وأنت غافل . . . الخ) فهى المنصور بكاء شديدا حتى نحب وارفع صوته .

الحجاج وحطيط الزيات :

ومن ذا الذى لم يصعب بظلم داهية بنى أمة الحجاج بن يوسف الثقفى ، وفلظته وسفكه
للدما ، ولكنه مع جبروته وفطرته لم يستطع صد المسلمين عن اعلان الحق .

فلقد جىء أنه يوما بحطيط الزيات أسيرا فلما دخل عليه قال : انت حطيط : قسأل :
نعم . منى ما بدالك . فأنى عاهدت الله عند المقام على ثلاث خصال : أن سئلت لأصدقن ،
وأن ابتليت لأصبرن ، وأن هويت لأشكرن . قال : فما تقول فى ؟ قال : أنك من أعداء الله
فى الأرض تنتهك الحرام ، وتقتل بالظنة ؟ قال : فما تقول فى أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان ؟
قال : أقول أنه أعظم جرما منك . وأما أنت خطيئة من خطاياهم .

ودخل رجل من المسلمين على المأمون بن الرشيد وقال له على ماكن رجالة : يا ظالم .
 أنا ظالم ان لم أقل لك يا ظالم ، فأقبل عليه المأمون وقال : من أنت ؟ قال : أنا رجل من
 المسيحيين فكرت فيما عمل الصديقون قبلى فلم أجد لنفسى فيه حظا ، فتملقت بموعدتك لظلمى
 الحقهم غامر بضرب عنقه . (١)

فبهكذا كان المسلمون فى الأيام الأولى يتقربون الى مولاهم يتعرضهم للملوك والصلاطيين
 وتخشينهم لهم فى القول ، وتقديم صهيهم للهلاك ، ولقد ظلوا على هذه الوتيرة بعد ، ولا
 يزال يوجد منهم الهانيون بأمرهم بالمحروف ومنهون عن المنكر ، حتى باتى أمر المسلمين ،
 كما ورد فى الخبر (لا يزال طائفة من أمقى ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى باتى
 أمر الله وهم ظاهرون) .

الفتنة التتارية ، والفتنة الفريسية :

فلا تفتتهم الفتنة الحديثة الفريسية ، ولا تمتطع ردهم عن علمهم الحق ، ان هى ليست
 بجديدة عليهم ، فلقد دهموا قبلها بالفتنة التتارية ، وزلزلوا بها زلزلا شديدا ، فكما نرى
 الدول الأوروبية ولا سيما انكلترا قد دمرت البلاد الاسلامية ، ومزقت شمل الخلافة المشرقية ،
 وقضت على حرية الممالك الشرقية ، وأباحت سفك دماء المسلمين أنهارا فى السهول الأناضولية ،
 كذلك كانت الفتنة التتارية والتتار ، لم يكونوا أناسا ، بل سهاطا ووحوشا ، انهالوا على البلاد
 الاسلامية كالسيل الجارف وضموا السيف فى رقاب المسلمين ، ودمروا الخلافة العباسية ، ودخلوا
 بغداد فباسوا خلال الديار ، ولكن هل قدرت سيوف هولاء وبنكو واقان السفاكين أن تقهرهم
 الصلحاء الربانيين وتسكنهم عن الحق ؟ كلا فهذا شاعر ايران الشهير الصفدى الشيرازى قد
 قال لهؤلاء الكارخان وجها لوجه : انك ظالم ودعا شمس الدين التتارى على منوخان وهو سمسج
 وخرى ، ولعن شيخ الاسلام احمد بن تيمية اياها أن فى حضرة وعلى مأمن جنوده .

نعم كانت فى أيدى التتار السيوف البتارة تطير الهامات فى طريقة عين ، ولكن لم يكن نفسى
 الشهرة الإنكليزية قانون ١٢٤ الذى امتازت به الدولة البريطانية المدنية فى بلاد الهند .

(١) ربما لأنه كان متكلفا فى هذا الموقف كما يظهر من كلامه .

الحجاج ريدنج

فاذا كنا نحن المسلمين قد علمنا حكومتنا الاسلامية هذه المعاملة ، فماذا يردوه منا عمال هذه الحكومة الأجنبية ؟ وهل تكون الحكومة الانكليزية الهندية ((القانونية)) اكرم علينا من الحكومات الاسلامية التي طاعتها واجبة علينا ((شرعا ودينا) ؟ وهل دولة الملك جنسوي الخامس ونياية اللورد ريدنج امر علينا من خلافة عبد الملك بن مروان ونياية الحجاج بن يوسف الثقفي ؟ ولو خفضنا الطرف عن الفرق الشري العظم بين الحكومة الأجنبية غير الاسلامية والحكومة الوطنية الاسلامية وانزلناهما منزلة واحدة ، افلا نقول في حكومات (جيمس فورد) و (ريدنج) ما قلناه في حكومات الحجاج وخالد القسري من قبل ؟ قد قلنا يومئذ : اتى الله ، فقد ملأت الأرض ظلما وجورا وهذا هو الذي نقوله اليوم ، ولا نزال نقوله حتى ينزل الاستعداد أو نسوّل نحن .

والحقيقة أن ما فعله الآن في الهند من ترك التعاون ومقاطعة الحكومة ، انما كما أمرنا به في مقابلة ظلم الولاة من المسلمين ، لا في مقابلة الأجانب . ولو فهم أساطين بريطانيا ودعاتها هذه الحقيقة ، لاعتزوا بأن مساهمة المسلمين معهم ومداراتهم قد بلغت منتهاها ، وأنه لا ينبغي أن ينتشر منهم أكثر من هذا ، إذ ليس وراءه إلا الارتداد عن الاسلام أو النفاق فيه ، ولا يمكنهم أن يفعلوا ذلك عما في سواد همون البريطانيين (أو زقتها) ..

موقف المسلمين اذا ظلّموا :

ان الشيعة الاسلامية رمت للمسلمين خطتين اذا ظلّموا ، خطة ضد استعداد الحكومة الاسلامية ، وخطة ضد استعداد الحكومة الأجنبية ، والأولى تنحصر في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وإعلان الحق ، وتبجيح الظلم من امتطاع اليه سهيلا ، أما الثانية فليست إلا السيف والحرب الصوان وضرب الرقاب ، وفي كليهما أمر المسلمين بأن يزهقوا نفوسهم ، ويرحبوا بالموت صابرين ، ثابتين ، شاكرين ، راجين رحمة ربهم وفلاح الدنيا والآخرة . ولذا تجدهم كما تبرزوا كروس المنايا بين الولاة الظلمة من أنفسهم في سبيل الحق ، كذلك باعوا رؤوسهم بيد الأجانب في إعلاء كلمة الحق وقد سبقوا سائر الأمم في هذا المضمار ، فلا يوجد (لمصمهم)

العربي (مثال ، ولا يوجد (لمصمهم المدني) مثال .

ولقد كان يجب على مصلحي الهند الآن أن يتخذوا الخطوة الثانية ، فيحاربوا الحكومة الانكليزية بالسلاح ، ويتظاهروا في جهادهم ، غير أنهم آثروا الأولى ، وأعلنوا أنهم لا يرفعون عليها السلاح ، ولا يسفكون الدماء ، بل يظلون متمسكين بحرى الأمن والسلم ، وإنما يقاطعونها ويغشون أيديهم من التعاون معها ، وشهروا بصواتها ، وباللون تشويرها (بالسحق المدني) أى يعاملونها كما كانوا يعاملون الحكومات الاسلامية البائرة .

أجل ان فيهم ضمنا ووهنا ، ولا يستطيعون محاربة الدولة البريطانية القوية ، إلا أنهم لم يكونوا عاجزين عن القاء أنفسهم في أعواء مدافعها وسد طريقها بجيشهم الممركة ، ولكنهم مسح قدرتهم عليه اختاروا الخطوة الأولى ، ولم يندبقوا عليها العجل ، فهلا كان يجب عليها أن تنكسر في صفهم وتسامحهم معها ؟ فدمسها أنهم يعاملونها كمعاملتهم لحكوماتهم الاسلامية .

انقلاب الحال :

وانى أقول حقا انه لا يؤمننى أن أرى الحكومة عازمة على معاقبتي ، وانها لا تحاكمنى إلا لأن تزجنى في السجون . اذ هذا أمر لا بد منه وانما الذى يؤمننى فبغيت كبدى هو أن أرى الحالة تنقلب انقلابا تاما فهدلا من أن ينتظر من المسلم صدق اللهجة والقول الحق يطلب منه كتمان الشهادة والا يقول للظالم (انك ظالم) (لأن قانون ١٢٤ يحاقب عليه) .

ولقد كان المعصم فى العهد الأول يوقف بين يدي ملك جبار لقوله له انك ظالم فيصب عليه العذاب الى أن تتشقى القصب ثم يهدون قصبة حتى يذهب لحمه كله ، فلا يسمونه يستفيث أو يندم أو يتألم ، بل لا ينفك لسانه يقول ما قاله أولا (١) فوازنوا بين هذا وبين قانونكم ١٢٤ .

ولست أنكر أن الحقيقة المحزنة هي أن المسلمين أنفسهم مسئولون عن هذا الانقلاب الممحرى وتسلط الأجانب عليهم ، لأنهم قد فقدوا خصائص الحياة الاسلامية ، وكسبوا جميع رذائل اليهودية حتى أصبحوا بحالتهم الحاضرة أكبر فتنة للإسلام . أقول هذا وقلبي يذوب حزنا ، وكما على وجود أناس من المسلمين فى هذه البلاد يتخذون أربابا من دون الله ، ومحمدون الظلم والظلمة جهرا وعلنا ، قال الله المشتكى ثم الى الله المشتكى .

(١) وقد فعل هذا الخجلاج بن يوسف الثقفى مع حطيط الزينات الذى موت حكايته أنا (المترجم)

العبودية أو المصون :

ولكن سوء حال المسلمين لا يحد ناصية تعاليم الاسلام الحق البيضاء المصونة بين دفتي الكتاب الحكيم ، وهي لا تبيح للمسلمين في حال من الأحوال أن يحبسوا عبيداً وثقلاً للأعداء والمستعبدين ، بل توجب عليهم أن يحرقوا أحراراً ، أو يموتوا كراماً ، وليس بينهما سبيل . وهذا الذي جعلني قبل اليوم باثني عشرة سنة على أن أذكر المسلمين في (الهلال)^(١) بأن الجهاد في سبيل الحرية ومع الروس في سبيل اعلاء كلمة الحق هو ارشهم الاسلامي القديم الذي ورثوه من أجدادهم المظالم ، وأنه يجب أن يحافظوا عليها بكل قوة ، وأن دينهم يحتم عليهم أن يحققوا جميع أمانيهم ووطنهم في الجهاد الوطني ، فلا يكونوا فيه أدناها ، بل رؤسا وأعلاما ، يهتدى بهم ، ولقد كان من فضل الله أن دعوتى لم تذهب أراج الرياح ، بل لقيت القبول والاجابة منهم ، وها نحن أولاء نراهم اليوم قد شجروا عن ساعدتهم ، وعزموا عزما أكيدا على السعى والميل مع الخوارج الوطنيين من الهندوس والنصارى والمجوس لتحرير وطنهم من يقة اليهودية الأجنبية ، ولا يقر لهم قرار إلا بعد نيل الغرام .

مسألة الخلافة :

وانى لا أذكر هنا مظالم الحكومة حيال الخلافة الاسلامية ، لأنها أشهر من أن تذكر ، ولكن الذى أريد التوضيح به هو أنه لم يجر على يوم ولا ليلة في خلال السنتين الماضيتين إلا وأعلنت تلك الممالك على رؤس الأشهاد ، وصرخت بأعلى صوتى قائلا : ان الدولة التى تدوس الخلافة الاسلامية تحت أقدامها ، ولا تتقدم على ما اقترفته في الهند من الفظائع والمنكرات لا تستحق أن يخلص لها أحد من أبناء هذه البلاد ، لأنها بأعمالها قد أصبحت عدواً للسلام والمسلمين وللسكان هذا القطر .

ولا تلوم الحكومة أحداً غير نفسها على سقوطها في هذا المأوى ، الذى يصيب عليها الشقاء الفخروج منه ، لأننى قد نهيتها سنة ١٩١٨ من معتنقى في كتاب منى الى (اللورد جيمس فور)^(١) الوالى السابق ، فصلت له فيه الأحكام الاسلامية التى تتعلق بالخلافة ، وجزيرة العرب ، وصارحته بأن الدولة البريطانية اذا نقضت عهودها واستولت على الخلافة والبلاد الاسلامية ، توقع المسلمين

(١) المجلة التى سبق أن تحدثنا عنها والتى أصدرها مولانا آزاد .

في حالة حرجة جدا ، ولا يبقى لهم ان ذلك الا ان يكونوا مع الاسلام او مع بريطانيا ومعلوم انهم يؤثرون الاسلام عليها .

ولكنها لتكبرها وهجرتها لم تهال بما كتبت ، فالقت كتابي ظهريا ، ونكتت ايمانها من بعد
توكيدها ، فاحتلت دار الخلافة الاسلامية ، واستولت على العراق والشام وفلسطين ، وبسطت
نفوذها على جزيرة العرب . فعادت الاسلام والمسلمين علنا ، واضطرتهم الى مقاطعتها ،
وبند معونتها والتبرؤ من طاغتها ، وهو اقل ما توجهه الشريعة في مثل هذه الحالة كما مسر ،
ثم انهم باصهارها على غيها واعراضها عنهم ، واستنكافها من الانصات اليهم اياستهم من نفسها ،
حتى لمبقوا ان لا سهل الى الحياة ونيل حقوقهم المنصوبة الا باسقاط هذه الحكومة ، واقامة
حكومة وطنية بحتة ، وهي التي يسمونها في لغتهم (بالسوراج) .

أعدل هذا أم ظلم ؟

ومخلاصة القول ان اعترافنا في هذا الباب جليلة وصريحة ، فاني لا أعد الحكومة الحاضرة
الا (يبروكيسيا) غير شرعية ، بعدما محضا في عين الحق والقانون ومثاق الملايين من أبناء
البلاد ، فهم بمقتونها أشد المقت ، ويطلبون زوالها وسقوطها بأسرع ما يمكن ، لأنهم ألفوا
دائما تؤثر الرهبة والشدة في أعمالها ، على العدل والحق ، وتبيع سفك الدماء البريئة بدون
رحمة ولا شفقة في (جلها نولا باع) (١) وتجلد الصبيان الذين ما عرفوا الذنوب بعدد لينحسروا
أمام العلم البريطاني المثلث — ثم انهم وجدوها لا ترتدع عن دوس الخلافة الاسلامية ، ولا تمنع
الصيحات المتوالية التي تعلو من أفواه المسلمين وغيرهم ، وتسلم ازير وتراقية الى اليونان فلما
وجوا ، وتسمع لهم باراقة دماء المسلمين أنهارا في سهول الأناضول .

ولقد رأوا جرأتها في سحق الحق غير قليلة ، وهمتها في ليس الصدق بالافك غير قليلة ،
ولسانها في تكذيب الحقائق غير عبي ولا متلعثم ، فمع أنه يوجد في ولاية ازير (٧٠ %) من
المسلمين ، يعلن رئيس وزرائها بدون أدنى تحجج أن الأكتية للمسيحيين (١) ولقد وضع

(١) هو ميدان محاط بالجدران بمدينة أرمتر من مقاطعة بنجاب في الشمال ، قتلت فيه الجيوش

الانجليزية مئات من الوطنيين رجالا وشيوخا وأطفالا ، كانوا قد اجتمعوا فيه ليتشاوروا في

اليونانيون السيف في رقاب المسلمين ، وذبحوهم ذبح الأنعام ، وهو يقلب الحقبة فيتهمهم
المثانيين بالقتل وسفك الدماء ، وصهر المظالم التركية المخترعة في العالم بلا مهالة ، ويخفي
بكل وقاحة تقرير لجنة التقشير الأمريكية التي نددتها حكومتها بنفسها ، ويؤلب على الأحرار
المثانيين الدول الغربية كلها ، ويدعوها إلى محاربتهم واستئصالهم !!

ثم انهم ويدعوها لا تخجل ولا تقدم على هذه الفضائح والمفكرات ، ولا ترفف في تلافيها
واصلاح عيوبها ، بل تمود ، فتستبد أكثر من قبل ، وتقهقر البلاد وتكبح سميتها الشرعي العنصر ،
وتعمل كل ماحلتها في الحقبة الماضية ، وما تعله منذ ١٨ نوفمبر ، إلى الآن ، من
الأعمال الشنيعة التي تشتمل منها الانسانية وتحافها .

فها ليت سمى ان لم أقل لمثل هذه الحكومة : (انك ظالمة ، فاما ان تتوبى وامسك
ان تنزولى فمناذا أقوله ؟ أفاكذب وأقول لها : لا بل انك عادلة فلا تتوبى ولا تنزولى ؟)
لعمرك الله ان هذا لن يكون أبدا .

ولا يستحق الظالم أن يبدل اسمه ، وصلى بخير اسمه ، لأنه يملك القوة والعجون والمشائق ،
كلا بل أقول كما قال زعيم ايطالية ومطل الحرية (ميني) :
قسوة عني في (هذه الجنابة)

اننى لأعجب كيف تقدم الحكومة هاتين الخطبتين الناقصتين ضدى ؟ أما كانت تجد غيرهما ؟
أفلا توجد هذه الأقوال بعينها وأكثر منها في الآلاف المؤلفة في الصحف التي حررتها ، وفي
جميع خطبى التي خطبتها في سائر أنحاء الهند ؟ فلو أنها رجعت إليها لوجدتها متلثة من
هذه الأفكار الثورية .

الحكومة تعلم أنى لست حديث عهد (بهادى الثورة) لفقد مارستها وأنا صفيير ،
واشرت الخطابة والكتابة فيها وأنا ابن ثمانى عشرة سنة ، وأقنيت شبابى في عشقها واليهيمسان
بها ، ودعوت أمتى إليها جهرا على مسع من الحكومة ، وحررتها على المطالبة بحقوقها منها ،
ولذا اعتقلتنى أربع سنوات ، ولكن الاعتقال لم يكن يمنعنى من أداء واجباتى ، فظلمت تعسست
المراقبة الشديدة أرفع صوتى بها ، وأدعو الناس إليها ، لا سرا بل علنا في رابعة النهار ،
وكيف لا ، وفيها قوة عني ، وهى مقصدي من الحياة ، أن أعثر فلاجلها ، وإن مت فمت عليها ،
(ان صلاتى ونسكى ومجيدى وماتى لله رب العالمين)

الحركة الإسلامية الاخيرة :

كيف استطيع التبرؤ من هذه (الجنائية) وأنا الذى قمت بهذه الحركة الإسلامية التى احدثت انقلابا عظيما فى أفكار المسلمين السياسية وأوصلتهم الى حيث تراهم الآن ، فانهم بقبولهم أفكارى أصبحوا شركائى فى الجريمة واستحقوا العقاب الذى تشرفنى به الحكومة ولقد اصدرت سنة ١٩١٢ صحيفة باسم ((الهلال)) بثت بها جرائم هذا الذنب لى المسلمين ، فملقت بقلوبهم وسمت أفكارهم ، فبعد أن كانوا أعداء لآخوانهم الهندوس وعقبة كلودا فى جهادهم الوطنى ، وآلة صماء فى يد الحكومة ، يعتقدون أن البلاد اذا استقلت تغلب عليهم الهندوس ، وأسموا دولتهم لأنهم أكثر عددا منهم ، أصبحوا بدعوة ((الهلال)) يرححون قوة الايمان ، قوة الايمان والحق على قوة العدد والعدد ودعوتهم الى المساهمة مع الهندوس فى الجهاد الوطنى ، فأصبحوا متحدين معهم ، وقاموا جميعا بالحركة الحاضرة ، وغنى عن البيان أن الحكومة لم تكن لتتحمل الحركة التى أحدثتها ((الهلال)) فعدت الى مصادرتها ، وإغلاق مطبعتها ، ثم انشأت جريدة اخرى باسم ((الهلال)) فاعتقلتني .

وانى أصح هنا بأن ((الهلال)) لم تكن الا دعوة للحريّة والموت وأن ما يعمل به الآن ((المهاتما غاندى)) من بث الروح الدينية فى النفوس كانت ((الهلال)) قد فرغت منه سنة ١٩١٤ وأن من المصادقات الصحيحة أن المسلمين والهندوس ما قاموا بالحركة الجديدة القوية الا بعد أن حلت فيهم الروحانية الدينية محل البدنية المادية .

مؤتمر الخلافة بلكتسا :

ثم انى من خرجت من الاعتقال الطويل ما برحت أندر هذه البادى بين الناس ، وادعواهم اليها ، ففى مؤتمر الخلافة الذى انعقد فى ٢٨ ، ٢٩ فبراير سنة ١٩٢١ بلكتسا نفسها والذى رأيت جلساته ، ووحلت المسلمين على أن يعملوا القرار الآتى :

((ان اصرت الحكومة على غوايتها ولم تصح لظالمينا فى مسألة الخلافة اضطر المسلمون تلبية لأوامر دينهم أن يتخلوا عن جميع روابط الولاء التى تربطهم بها)) .

وأقيمت في هذا المؤتمر خطبة طويلة بينت فيها جميع الأمور ببيان تام ، وهي توجد
ناقصة في هاتين الخطبتين اللتين أحاكم عليهما . . .

التعاون والخدمة العسكرية :

ولقد شجعت في هذه الخطبة أن الشريعة توجب على المسلمين في الحالة الحاضرة
أن يكفوا عن التعاون مع الحكومة ، وأن يقاطعوها مقاطعة تامة ، وهذا هو ((اللا تعاون))
الذي أطلق عليه فيما بعد اسم (*Non Cooperation*) وتولى ((مهاتما غاندي))
قيادته .

وفي نفس هذا المؤتمر المنعقد بكلكتا أعلن ((أنه لا يحل للمسلمين أن ينخرطوا
في الخدمة العسكرية لهذه الحكومة ، لأنها تحارب الخلافة الإسلامية)) وأن من أعجب
المجب أن تؤخذ الحكومة أناسا ^(١) وتماقهم لإعلانهم هذا الحكم في مدينة كراتشي ولا
تؤخذني به ، مع أنني صرحت مرارا على صفحات الجرائد وفي خطبي أن أول من قدم هذا
الاقتراح وأعلن هذا الحكم الديني هو أنا بعيني ، فقد تقرر هذا وصودق عليه في ثلاثين
مؤتمرات تحت رئاستي ((أولا في كلكتا ثم في بريلي ثم في لاهور ، وقد أعلنته في غير هذه
المؤتمرات ودعوت الحكومة إلى معاقبتي ، مع أنني كنت أحق الناس وأولاهم بالعقاب عليه .
وقد طبعت خطبة مؤتمر كلكتا بعد زيادات فيها ، ونشرت مع الترجمة الانجليزية
مرارا ، وهي بمثابة جدول مكتب لجرائد وذيبي .
حياتني كلها)) جنائية)) :

لقد طفت البلاد الهندية كلها عدة مرات خلال السنتين الماضيتين وحدي ، ومع
((مهاتما غاندي)) ولا توجد بلدة إلا وخطبت فيها على مسألة الخلافة وبنجاب ((وسوراج))
(الحرية) واللاتعاون ، وبنيت جميع تلك الأمور التي تحتوي عليها هاتان الخطبتان .

ولقد انعقدت جمعية الخلافة الكبرى في ديسمبر سنة ١٩٢٠ مع المؤتمر الوطني فسي
(ناكبور) وجمعية العلماء في إبريل سنة ١٩٢١ في ((بريلي)) وجمعية الخلافة لمقاطعة
(أوهر) في أكتوبر ((بأجرا)) وجمعية العلماء العامة في نوفمبر ((بلاهور)) وقد رأيت
(١) وقد سجنّت الحكومة الآخرين المشهورين محمد علي وشوكت علي وغيرهما مدة سنتين لإعلانهم
مثل هذا في مؤتمر الخلافة الذي عقد في كراتشي سنة ١٩٢١ .

هذه الجمعيات كلها ، وخطبت فيها خطبا طويلة قلت فيها ما قلت في هاتين الخطبتين بسـ
أشكر منه وأشهد .

فان كانت محتويات هاتين الخطبتين لا تلائم الحكومة وترأى أستحق المقاب لأجلها
تحت قانون (١٢٤) ، فلم لاتماقبنى على جميع خطبى ، وهى كلها مثلها بل أشد وطأة
على الاستبداد منها ؟ بل انى مضطرها الى التصريح أمامكم بأنى ارتكبت هذه الجناية
مرارا يستحيل عدها بل ما علمت فى السنتين الماضيتين غير هذه الجناية .

اللاتماون السلمى :

اننا وضعنا لجهادنا الحق خطة (اللاتماون السلمى) . أجل أن القوات المادية
واقفة أمامنا بجميع اسلحتها القتالة وموادها العظيمة تريد أن تسحقنا سحقا وتحتسق
الحرية والحق معنا . ولكن هذا لا يهولنا ، لأننا لانتق بالمادة والأسلحة المادية . انما
اتكأنا على الله الواحد القهار وثقتنا الضحايا المتوالية التى تقدمها ، والثبات القوى الذى
تظهره فى هذه المعركة القائمة بين الحق والباطل والحرية والاستبداد .

وانى لا أرى مثل ((مهاتما غاندى)) أن استعمال السلاح لا يجوز بحال ، لأننى
مسلم واعتقد أن استعماله مباح فى المواقع التى ابتاعه الاسلام فيها ولكنى مع هذا أسلم
بجميع أدلة ((المهاتما غاندى)) فى المسألة الحاضرة واعتقد صحتها ، وانى لعلى يقين من
أن فى أن الهند ستفوز فى قضيتها بخطة اللاتماون السلمى ، ويكون فوزها مثالا عظيما لفوز القوة
الروحانية والاخلاقية والحق على الباطل والمادة . .

الحالة الحاضرة الطبيعية :

وانى أكرر ما قلته أولا وهو أن ما تحمله الحكومة معنا ليس بأمر عجيب ولا غير متعارف
فعلومها عليه ، أو نتبهم منه ، فان القهر والمنف لقم الحرية والحق دأب الحكومات الباغية
ومعها منذ الأيام الخالية الى اليوم ، ولا ينبغي لنا أن نغنى أنفسنا بتغيير الطبيعة لأجلنا .

وهذا الضعف الطبيعى كما يوجد فى الأفراد يوجد فى الجماعات ، فكم من الناس من
يود النزر اليسير المصوب لأنه لاحق له فيه ؟ وكيف نتنظر من دولة أن تتخلى عن قارة تسلمت
عليها ووجدتها تدرك ليقوة الحلوب ؟ انما لاتقبل شيئا لأنه حق وعدل ، بل تتنظر قوة مقاومة

مثلها ، فإذا عاصمت بها خضعت لكل طلب مهما كان قاحدا ، فالجرب التي شئت الآن
بين البلاد والحكومة لابد من طولها وامتدادها ، ولا تأتي النتيجة الا بشق الانفس وان
هذا لواضح جلي لكل بصير ، بل هو عادي مثل سائر احوالنا المادية ، فلا ينبغي أن نمجب
معه أو نضجره .

واني أسلم بأننا لم نصنعنا ما أصاب الأمم قبلنا في هذا السبيل ، من العسف والظلم
ونفس الأموال والأنفس ، ولا أدري أهذا لضعف في مطالبتنا بالحقوق ، ووهن في سحرنا وجهادنا
أم لأن ظلم الحكومة لم يبلغ منتهاه بعد ؟ أن المستقبل وحده كهل بكشفه وبانه .
وقد علمنا التاريخ أن هذا التراجع كما يبتدىء في كل زمان متشابها ، كذلك ينتهي
دائما متشابها ، فالحرية والحق ينتصران ويغلبان ، والاستبداد والباطل يخذلان ويسقطان ،
فإذا كنا صادقين في قضيتنا ، صاهرين في بلاتنا فانتنا ننجح ونفوز بلا ريب ، وتضطرب هذه
الحكومة التي تماثلنا اليوم كالجربيين الى أن ترحب بنا غدا كالأبطال الفاتحين . . .

الثورة :

لقد اتهمت بالثورة ، فسهلا هذروني أفهم معنى ((الثورة)) أي ذلك المسمى الذي لم
ينجح بعد ؟ ان كان هذا هو الثورة ففهم . اني ثائر وواقف بين يديكم فمأقبوني بأي عقاب
ستم . ولكن اعلوا أن هذا المسمى اذا تكلل بالنجاح فانه يسمى (بحب الوطن) وجهاد الحرية .
فقد كنتم بالأمس تسبون قادة ايرلندا (ثوار عصابات) ولكن أي اسم تختاره الدولة البريطانية
لدينا ليرا وجريفت ؟ أم ثوار الآن أم أبطال الحرية ؟

ولقد قال مرة قائد ايرلندا بانل : مازال عملنا هذا يسمى في البداية ثورة ، ثم كان
في النهاية جهادا وحربا مقدمة للحرية والوطن .

ناموس القضاء بالحق :

اني مسلم وحبب المسلم يقينا كتابه الذي يؤمن به ، فالقمان يدل على أن ناموس انتخاب
الطبيعة وبقاء الأصلح ، ناموس عام ، كما يحمل عمله في الأجسام والمادة فيبقى فيها الأصلح
والأصلح للبقاء ، كذلك يحمل في المعائد والأعمال ، فالأعمال الصالحة تخلد وتثمر ، والأعمال

السياسة تفنى وتصير عباءة منثورا ، وإذا وقع بينهما نزاع غلبت الأولى وحلت محل الثانية
(فأما الزيد فيذهب جفاً ، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض ، كذلك يضرب الله الأمثال (١) .

ولذا يسمى القرآن العمل الصالح ((بالحق)) الذي معناه الثبوت والقيام ، ويسمى
الشر والسوء ((بالباطل)) الذي من شأنه أن يزول (ان الباطل كان زهوقاً) .

فالتدافع الذي نراه قائما بين الحزبين سينتهي غدا بفوز الحق والصدق وخسران
الباطل تلك سنة الله ((فلن تجد لسنة الله تبديلا ، ولن تجد لسنة الله تحويلا)) (٢) .

وانى لا أدري أغرب يوم الفصل أم بعيد ؟ ولكنى أرى الجوقد اكهر ، وفليهد بالغيوم ،
واجتمعت الآيات على سقوط الامطار ، والويل كل الويل لمن يرى الآيات والنذر ثم لا يأخذ أهبتها ،
ولا يسد ثغراته ، وانى لأرى الحكومة من أولئك الذين لا تغنيهم الآيات والنذر فانها لا تزال فى
تيهها وظفيرانها .

وقد قلت فى هاتين الخطبتين : ان الحرية لا يسطع نجمها ، ولا تستوى على سوقها
الا اذا سقيت بماء الظلم والقهر ، فيها هى ذى الحكومة قد أخذت تسقيها بظلمها وقهرها ،
وكذلك قلت فيهما : اخوانى — لا تحزنوا على من حبس منكم ، بل ان كنتم تطالبون
الحق والحرية حقا فهلوا الى السجون واملئوها . فيها نحن أولاء نرى السجون قد ازدحمت
وامتلأت حجرتها حتى لم يبق فيها محل للصوم والقتلة ، واضطرت الحكومة الى تشييد سجون
جديدة .

وثيل الدعوى ، والبوليس ، والقاضى :

وفى الختام أريد أن أسوق كلمة الى هذا النفر من بنى جلدتى الذين يحملون ضدى فى
هذه القضية ، فأقول : " أصحابى . ثقوا بأبنى لا أغضب ولا أحقد عليكم ، بل لا أتبهكم
بالكذب والنزور على " لأن كل ما قلتموه فى الشهادة حق وصدق ، ولكنى أراكم قد عصيتم الله
وكم مساعدة الحكومة فى استبدادها وظلمها ، ومحاربتها للإسلام والانتسانية ، انى أعلم أن صوت
الضمير يوحىكم فى أعماق سرائركم على ما تعملونه ، ولكنكم انما اضطروتم اليها اضطرازا ، لأنكم
لا تملكون ما تسدون به عزكم وترزقون به أهليكم ، وليس فيكم قوة لتحمل البأساء والضراء فحسبى
سبيل الحق ، فلذا لا أضيق عليكم ولا أهنفكم بل أعفو عنكم وأستغفر لكم الله .

وأما وكيل الدعوى فهو أيضا أحد أبناء وطني ، ولا علم لي بسميته . وإنما أرى علانيته ، وهي تشهد أنه لا حظ له في هذه القضية ^{غير} ما يتقدمه من النقود . فأنسه أجبر يحمل لأجرته ، فلذا لا أسخط ولا أحتق عليه ، بل ادعوا لجميع هؤلاء بدعوة نسبي
السلام صلى الله عليه وسلم لقومه (اللهم اهد قومي فانهم لا يعلمون) .

فاقض ما أنت قاض :

وأنت أيها القاضي ما ذا عسى أن أقول لك ؟ ما أقول إلا ما قاله المؤمنون
قيل في مثل موقفى هذا : (فاقض ما أنت قاض إنما تقض هذه الحياة الدنيا) .

اننى لا أحس بأدنى هم ولا ألم منها تنالني في المقاب ، لأن خطايي مع الحكومة
لا مع شخص واحد . وما دامت الحكومة فاسدة فلا رجاء في صلاح عاملها .

وانى لأختم خطايي بكلمات لفقيه ايطاليا وشهيد الحق ((غاردنيوسونو)) الذى كان
أوقف مثلى أمام المحاكم فقال ((عاقبوني بأكثر ما يمكنكم أن تعاقبوني به ، فاني أؤكد لكم أن
ما يضر به قلبكم من المظف والحنان عند كتابتكم الجزاء لا يضر قلبى في مقابلته بذرة من الفزع
والهلع عند سماعى هذا الجزاء)) .

وختاماً :

أيها القاضي لقد طال الحديث ، وأن أوان الوداع ، فليودع كل منا صاحبه ، وإن
ما يدور الآن بيننا سيسجله التاريخ بين دفتاره ، ويحتمر به المعتبرون ، ولقد تشاركنا نفسى
ترتيبه على سواء ، أنا من هذا القصر للجنة ، وأنت ذلك الكرسي للقضاة . وانى أعلم بأنه لا بد
من هذا الكرسي ، وكذلك لا بد من هذا القصر فهلم بنا نفرغ من هذا العمل الذى سيكون عبثاً
وتذكراً للآتين ، فالمؤرخ ينتظرنا ، والمستقبل يتربص فراعنا ، لنسج في المعجى ، اليك ولتسرع أنت
في القضاء علينا ، وأن هذا العمل لا يطول قليلاً حتى يفتح باب المحكمة اخرى . وتلك المحكمة
محكمة قانون الله والحق ، الزمان يقضى فيها ، ويكون قضاؤه حكماً ، وحكمه نافذاً .

” ملحق د ”

=====

الخـلاصة

=====

على وجهه في النار • وجعل زمامه بيد الشيطان • وقضى على نفسه بالخسران والهلاك — وذلك لأن الجماعة كلسلسلة الفولاذية التي يعمى الأعداء كسرهما • وآحاد الأمة كالحلقات التي سلامة كل واحدة منها في سلسلتها • فانها ان انفصلت عنها صارت حلقة واحدة تكسر أو تلقى في الزهالة •

ولقد كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه كثيرا ما يروى في خطبه — عليكم بالجماعة — فان الشيطان مع الفرد • وهو من الاثنين أبعد • وفي رواية — فان الشيطان مع الواحد • وقد ذكره في خطبته الشهيرة بالجابية التي رواها عبد المنزير ابن دينار وعامر بن محمد وسليمان بن يحيى وغيرهم ونقل البيهقي أن الشافعي رضي الله عنه كان يستدل بهذا على صحة الاجتماع — وورد في الحديث المتواتر بالمعنى — عليكم بالسواد الأعظم • وحديث • فانه من غدر • غدر اثنى النار • وحديث • يد الله على الجماعة • وحديث • لا يجمع الله أمقى على الضلالة وكما قال على طبع السلام في خطبة له • اياكم والفرقة • فان الشاذ من الناس للشيطان كما أن الشاذ من الختم للذئب • الا من دعا الى هذا الضمار فاقتلوه • ولو كان تحت عامستي هذه • (١) وغير هذا كثير من الأحاديث والآثار في هذا الباب —

فجملة القول أن المسلمين أمروا أمرا مؤكدا بأن يكونوا مع الجماعة أبدا • لأن من انقطع عنها انقطع في النار — ولأن الأفراد والآحاد المنفرقة لا حياة لهم بل انسا هم للموت والفناء والهلاك • وأما الأمة الصالحة فحياتها باقية على وجه الدهر • ولن تهلك أبدا — ولأن يد الله مع الجماعة • وهو لا يرضى أن تجتمع الأمة بأسرها على الضلالة • (٢)

ولتمهيد المسلمين على الحياة الاجتماعية أمرتهم الشريعة بالتزام صلاة الجماعة في كل حال • حتى انها لا تترك لفقدان الامام الأهل للجماعة • بل يداوم عليها مع السعي في نصب الأهل لقوله صلى الله عليه وسلم • صلوا خلف كل بر وفاجر (٣) • ولذلك نرى سورة الفاتحة التي هي دعا اجتماعي للمؤمنين عامة يدعو بها كل

١ — روى هذا في الروايات الأخرى مرفوعة — من حوامي الاصل

٢ — تقديم التحليل يفيد الحصر ولا حصر في صلاة الجماعة فوائده أخرى •

٣ — رواه البيهقي في سننه بسند ضعيف وله تنقيح •

واحد منهم على حدته استعملت فيها صيغ الجمع لا الواحد - فقال " اهدنا الصراط - المستقيم " ولم يقل " اهدنى " وذلك لان القرآن كما قلنا من قبل لا يرى لفرد حياة قائمه بالذات ، بل الحياة عند الجماعة فقط - وما الافراد واعمالهم في نظره الا لان تتكون منهم وضعا الهيئة الاجتماعية ، فلهذا عبر بصيغ الجمع في هذا الدعاء الذي هو حاصل الايمان ، وزيد القرآن ، صيغ الاسلام - وكذلك جعل الدعاء الذي يدعو به كل مسلم لاختيه لما يلقاه " السلام عليكم " بالجمع لا " السلام عليك " كذلك السلام حينئذ يخرج من الصلاة - والعلة فيه ايضا ما ذكرناه لا ما فهمه كثيرون من الناس .

وانك اذا امنت النظر ترى جميع احكام الشريعة واعمالها مبينه على هذا الاساس - اساس الاجتماع والائتلاف - وقد علمت ما في صلاة الجماعة والجمعة والعديد من مثلها الحج ، فليس هو الا عبارة عن اجتماع المسلمين على اداء شعائر الله ، وكذلك الزكاة التي ما جعلت الا لقيام الهيئة الاجتماعية ، فيؤخذ من رؤوس اموال الافراد شيء معين ليصرف على الجماعة وطريقة ادائها ايضا اجتماعية فليس لكل احد ان يصرف زكاته بمشيئته وارادته ، بل عليه ان يؤدبها الى الامام الذي له وحده ان ينفقها في الامور العامة ويصين لها مصرفا من المصارف المنصوصه في الكتاب - لا كما يفعله الناس في الهند فينفق كل واحد زكاته بنفسه نعم ليس في هذه البلاد التحصن امام ، ولكن هذا لا يمنعنا من ان نعمل لها نظاما مخصوصا كما علمنا للجمعة والعديد .

وليسر الله ان هذه الخفية واضحة لا غبار عليها تنجلي كالشمس لمن دقق النظر - في الاحاديث النبوية التي تنص على ان المسلمين يجب ان يعيشوا عيشة واحدة ويحسبوا انفسهم ابنا امه واحدة - فانظر مثلا حديث مسلم " مثل المؤمنين في توادهم وتراحيمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد . اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحماس " وحديث الصحيحين " المؤمن للمؤمن كالبنتلن يشد بعضه بعضا " ثم شبك بين اصابعه فوضح صلى الله عليه وسلم ان المسلمين ليسوا اجرا او حجارة متفرقة بل هم جدار بل حصن مشيد يشد بعضه بعضا - ولا يذهبن عن ذلك ان الامر بتسوية الصفوف في الصلاة انما هو لنفس هذه الحكمة - قال صلى الله عليه وسلم " لتتسمن

صفوفكم أو ليخالفن الله بين وجوهكم " (البخارى) وفى رواية العنن " سوا صفوفكم
فان تسمية الصفوف من اقامة الصلاة " — (البخارى) ومثله كثير من الآيات والاحاديث
فى هذا الباب ، يحتاج فى شرحها وبيان حقائقها الى مجلد ضخم ، وقد وبيننا
البحث حقه فى تفسيرنا " البيان فى مقاصد القرآن " فليراجع من يشاء .

اجتماع القوى والمناصب وانتشارها =====

لما كان المسلمون سائرين على هذا الناموس الالهى — ناموس الاجتماع والائتلاف
— كانوا فى الذروة العليا من التقدم والرقى ، ولما حادوا عن هذا السبيل القويم
سقطوا وانحدوا ، فعل محل الاجتماع والانتشار — فتفرق جمعهم وتمزق شملهم —
وتبددت قواهم ، فكانوا قوما يهوا . ولم تقتصر هذه البلية على جانب دون جانب
بل عمت وأحاطت الأمة من جميع الجوانب وهى لا تزال ضاربة بأطنائها منذ السيف
ثلاثمائة سنة ، بل أخذت فى الازدياد وما يمر يوم الا وتشتد وطأتها فيها —

وقد لهج الناس كثيرا فى انحطاط المسلمين ، فحللوا له عللا ، واخترعوا لـ
اسبابا — غير أن القرآن الحكيم والسنة النبوية والعقل الصحيح لا يقيم لهذا القيل
لقال والثروة وزنا ، ويرى أن الفساد والانحطاط نتيجة الانتشار والتمتد فقط ، وكل
هذا من الملل والأسباب فتفرقة منه ، وراجعوا اليه ، فملة سقوط المسلمين
حدة لا اثنين ، وان سميت بأسماء مختلفة ، وذكرت بألفاظ عديدة .

نعم قد عمت القوى جميع شئون الأمة ، غير أنا نذكر ههنا واحدا منها فنقول .
من النبي صلى الله عليه وسلم مركزا للكمة الاسلامية ترتكز عليه ونقطة لقواها تجتمع
فيها ، فلهذا لم يخل بولائه محل نبى وحامل شريعة فقط ، بل قد حصل
من جامعة الأمة ومصدر قواها ونفوذها — وحكومتها الى غير ذلك من الأوصاف
مخصائص التى كانت مجتمعة فى شخصه الشريف — إذ أنه لم يكن كالمصيح عليه
سلام معلما وواعظا ، ولا كالمملوك الذين فتحوا وحكموا ودمروا وخربوا ، أو كـ
أدوا ، بل كان صلى الله عليه وسلم جامعة لصفات ومزايا كثيرة فى حين واحد
من نبى الله ورسوله وهادى الخلق وواعظهم وواضع الشريعة ومؤسس الأمة وحاكمهم

الله تعالى " اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً " نعم تمت هذه الوظائف النبوية الأمامية ، ولكن بقيت لها وظائف أخرى غربية وستبقى على حالها ما بقي من الناس باقى ، وقد عبر عنها النبي صلى الله عليه وسلم بمبارات مختلفة ، فقال عن عمر رضى الله عنه انه " معدن هذه الأمة " وقال من العلماء انهم " ورثة الأنبياء " وقال " انزها الصادقة جزء من أربعين جزءا ممن النبوة " وانه " لم يبق الا المبهرات " وحديث " التجديد " أيضا من هذا النوع .

فخلفاؤه الراشدون كانوا خلفاءه فى جميع وظائفه النبوية غير تلقى الوحي وحقق التشريع ، اذ هما خاصان به ، لا يشاركه فيهما أحد من الخلق (١) فكانوا مثلثه خلفاء الله فى أرضه ، وأصحاب السلطان — والنفوذ فيها ، وسواهم الأمم وقواد البرية وقضاة المحاكم ، وأصحاب الاجتهاد والفتيا ، ومنظمى البلاد ، وقاضى الأقطار ، وحكام الأمم والشعوب ، وذلك لأن " الخلافة والامامة " فى ذاتها كالنبوة مشتملة على الدين والدنيا ، وخليفة المسلمين كتبهم مجتهد ديني ، وحاكم سياسي — فكانت ترى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب مثلا فى داره وراء بالمسجد النبوى يفتى على

١ — المنار . حق التشريع فى الاسلام لله فهو الذى شرع الدين وأحل الحلال وحرم الحرام . واختلف العلماء فى كونه تعالى أعطى للنبي أن يشرع من تلقاء نفسه ابتداء أم لا ، فذهب الجمهور الى أن — جميع ما ثبت فى سنته من الأحكام فهو بوحى من الله تعالى غير القرآن أو باجتهاد فى فهم أحكامه والاستنباط منها ، ولهم دلائل كثيرة على هذا أظهرها أسناد الشرح اليه تعالى بقوله تعالى (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك) الخ وقوله (ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها) وإذا أطلق عليه صلى الله عليه وسلم لقب الشارح فانما يراد به على هذا القول مبلغ الشريعة ومبينها وقال بعضهم ان الله أذن له بالتشريع من تلقاء نفسه واستدلوا بتحريمه للمدينة كما حرم إبراهيم مكة أن يهاج صيدها أو يمسد شجرها أو يفتل خلاها (أى يقطع حشيشها) ولما قال له عه الحباس . الا الانذر يا رسول الله — وهو نبات عطر كانوا يضعونه على الموتى عند دفنهم قال " الا الانذر " وراء هذا التشريع الدينى ما جعل الله أمره مفضا الى الرسول وإلى أولى الأمر بقرره بالمشارة وهو جميع ما يتعلق بالمصالح الدينية وحسن نسي عرف علماء الحقوق والقوانين تشريعا ومنحود الى بيانه عند التكم على أولى الأمر .

في المسائل الدينية من حيث أنه مجتهد وفقه وقضى وبعثكم بين الناس من حيث
أنه قاض وحاكم — ومنظم الجيوش وشرى عليهم الجارية من حيث أنه ناظر الحربيسة
— ومنع الخطأ العربية من حيث أنه القائد العلم — ويقابل صفراء الروم —
حيث أنه ملك وسلطان — ثم تراه في سواد الليل متفقد أحوال المدينة كأنه حارس
وخير وأب رحيم للمسلمين .

بل الأمر أكبر مما ذكره فقد ناب الخلفاء الراشدون عن النبي صلى الله عليه
عليه وسلم في وظائف النبوة التنفيذية المتعلقة بهداية البشر التي جعلها القرآن
ثلاثة أقسام بقوله تعالى " يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة " (٣/٦٢)
وظائف النبوة التنفيذية . تلاوة الآيات — وتزكية النفوس — وتعليم الكتاب
والحكمة — فقاموا بهذه خير قيام — ونابوا عنه فيها أحسن نيابة — فكانوا أسوة بسببه
يتلون على الناس الآيات الإلهية ويذكرون القلوب والأرواح ويربون الأمة بتعليمهم
الكتاب وحكمة السنة — فكانهم كانوا في آن واحد أبا حنيفة والشافعي — وجنيداً
والشعبي — وحامداً والنخعي — وابن معين وابن راهويه والبخاري — ولم يكن سلطانهم
على الأجسام فقط — بل كانوا يهكمون على القلوب والأرواح أينما سيطرتهم القويمة
وروحانيتهم القوية — ولذا سميت خلافتهم (بالخلافة الراشدة) — وجعلت أفعالهم
تتمة لأعمال النبوة — فقال صلى الله عليه وسلم من وصية له " فعليكم بسنتي وسنة
الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ " (١) فذكر مع سنته وأوصى
الأمة بأن تمض عليها بالنواجذ —

ولكن والأسفاه . لم تبق الخلافة النبوية والهيئة الاجتماعية الإسلامية على هذا
المنوال طويلاً — بل انتهت بأمير المؤمنين على عليه السلام — فمع الانتشار والتفتت
جميع شئون الأمة فتزلزلت بناية الأمة الاجتماعية وسقطت جذرائها فهي غايمة عاصي
عروشها — وانتفض النظام الشرعي وتبعثرت حائر القوى بعد أن كانت كحلة واحدة
متممة على نقطة واحدة — وتفرقت المناصب والوظائف على أناس كثيرين بعد أن كانت

١ — رواه أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه
الترمذي حديث حسن صحيح — وأول المرفوع منه " أوصيكم بشيئ الله " .

في يد واحدة — فمن ثم انضمت الحكومة والسياسة ، عن الدين والشريعة ، وأصبحت الخلافة عارية من صفاتها الروحية ، ومجردة عن وظائفها التعصبية عن نزع النبوة صارت ملكا عضوا طبعا لقوله صلى الله عليه وسلم " الخلافة بعدى ثلاثون سنة ثم ملك " وقد تقدم وأما وظائفها الدينية فانقسمت أيضا وقام بها أناس آخرون فعمل القضاء والاجتهاد الفقهاء والمجتهدون فاصبحوا فرقة ، وحمل وظيفة الإرشاد وتربية الأرواح وتزكية النفوس الصوفية وأبوا فرقة ، مع أن هذه الوظائف كلها كانت في يد الأمر بيد الخليفة الاسلامي فكان قائما بها كلها خير قيام ، وكانت بيعته تفسى عن غيره — بيد أنه بعد الانتشار والتفتت أصبح ملكا محضا ، نائيا عن وظيفة الافتاء والتدبير ، بعيدا عن التعليم الروحي وتزكية النفوس ، فهرج الناس السي أصحاب الطرق والمتصوفة وأخذوا يبايعونهم " بيعة التوبة والارشاد " " عيسى اصطلاحهم " فبعد أن كانت القوى والمناصب والوظائف مجتمعة في شخص الخليفة فكان ملكا وفقهيا ومرشدا وقاديا وقائدا ومحسبا ، تفرقت في دور الشتات وأصبحت لا نظام لها ولا زمام ، بل كلما امتد الزمان ، زاد الدين بؤة ، والخرق سوءة ، حتى بلغ السيل الزوى ، وصمت البلوى ، فتمارست القوى وتصادم بعضها ببعض ايمسا تصادم — هذه هي الداعية الدنياء التي دعمت الأمة الاسلامية تقذت عليها ، لا ما يشغلت فيه الناس من اختراع الأسباب والمحل لسقوط المسلمين تقليدا للأفرنج —

والما قبل أن الخلافة التي تلت الخلافة الراشدة — سواء أكانت قرشية أو غير قرشية كانت حكومة دنيوية محضة وملكها عضوا بعيدة عن النيابة النبوية في وظائفها السياسية والدعم (اللهم الا خلافة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه) وهي لا تزال على هذه الطريقة الى الآن الا ما كان في عهد السلطان عبدالحميد من الانقلاب وتأسيس الحكومة الدستورية فسائه ما لا ريب فيه عود محمود الى الخلافة الراشدة قليلا — لأن الشرط الأول والميزة الكبرى للحكومة الاسلامية الحق — اما في غير هذا

فتم تفسير من أحوالها شيئا .

١ — المنار . ان الانقلاب الذي وقع في آخر عهد عبدالحميد بالرغم منه وكان قاضيا على سلطانه لم يكن شرعا ولا وقع انتصارا للشرع وعودا اليه بل تقليدا للأفرنج . ومن أصوله أن يحل محل الخليفة السلطة المستقلة في كل شيء . ولكنه مع ذلك أدنى الى تمكين الأمة من اقامتها الحق والمعدل ومراعاة الشرع من السلطة الاستبدادية التي كان يتمتع بها اذا كان انراى

بعد هذه التوطئة الضرورية للبحث نقول أن الشريعة الخراء فرضت على المسلمين طاعة الخليفة مالم يأمر بمعصية • كما فرضت طاعة الله وطلعة رسوله ولا عيب • شأن نظام الشريعة الانتماء يقتضى ذلك وهو مطابق لناموس الفترة تمام المطابقة • بل هو حلقة من سلسلة هذا الناموس الالهي الذي يمتنع له كل ما في السمسموات والأرض • وذلك لانا نرى كل شئ من هذا الكون الهدى على نظام طبيعي مخصوص وهو الذي يسمونه " بناموس المركزية " أو " بناموس الدوائر " فكل جهة من هذا الكون " مركز تحيط به الأجسام والذوات على شكل الدائرة وعلى هذا المركز تتوقف حياتها ونشأتها ونهايتها فلو تحولت هذه الدائرة أو انحرف عن طاعتها تحصل حالا وصحتها الغراب والدمار في ارضة عين • وعن هذه الحقيقة عبر بعض الفلاسفة بقوله " ان الحقيقة كالكرة " ومنها قال صاحب الفتوحات " بانها دائرة قاب قوسين " " ناموس المركزية " هذا نافذ في الكائنات كلها • فما هذا النظام الشمسي الذي فوقنا • وهذه السيارات الحائية والنجوم المتألقة • والكواكب النيرة المتباعدة على بساط السماء • وهذه الحياة المجيبة والحركة المدهشة للحقول ؟ ان هسى الا بظاهر من مظاهر هذا الناموس • فالنجوم لها دوائر • وكل دائرة منها قائمة على نقطة في الشمس • حولها حركتها ودورانها • وحليها حياتها ونشأتها • بهيها قياسها ودوامها • وستبقى هكذا مادامت مرتبطة بمركزها وتقاداة له • (ذلك تقدير انشيز الحليم) وكذلك ارضنا حلقة من تلك الدائرة خاضعة لمركزها كل آن • فكل من الأرض والسموات يدور في محوره ويصبح في فلكه ويطلع مركزه ولا يخرج عن دائرته أبدا حسب قوله تعالى (وله أسلم من في السموات والأرض) (٨٣ / ٢) وقوله (ألم تر أن الله يصعد له من في السموات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم) الخ (١٩ / ٢٢) وقال (لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون) (٤١ / ٣٦)

مركزا للمبادات عليها مدارها ولتباعها ضياعها وطلاتها لقول النبي صلى الله عليه وسلم " فمن أقامها أقام الدين ومن تركها فقد هدم الدين " وفي حديث الترمذي " كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يورثون شيئا من الأعمال تركه كفر غير الصلاة " وقد جعل الكعبة مركزا أرضيا لعاشرة الأركان والشعوب والبلاد فقال تعالى " جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس " ولما أوجب أن تتوجه إلى هذا المركز دوائر الناس ووجوههم فقال (وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره) (٢/١٤٥)

ثم لما كان للأجسام والأشخاص والمعتقدات والأعمال مراكز ، وجب أن يكون للحياة الاجتماعية مركز ، فجعل الله لها مركزا ، وجعل الأمة حوله كالدائرة ، وأوجب عليها مراقبته ومواقفته وطاعته ، فإذا نادى له ، وإذا تحرك تحركت ، وإذا يقف وقفت ، وإذا نهض نهضت ، وإذا رجع رجع ، وجعل عيانه منسوبة لجاهلية التي لا مخرج منها إلا بالعودة والرجوع إليه ، وقد سئ المسلمون هذا المركز - الاجتماع - بالخليفة والامام " وفرض على المسلمين قاطبة أن يعينوه بنصروه ويطيعوه كما يطيعون الله ورسوله ، فقال تعالى " يا أيها الذين آمنوا طيعوا الله واطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم ، فان تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، ذلك خير وأحسن تأيلا " (٦٣/٤)

فصل

أوليس هو الأمر

أمر الله سبحانه في هذه الآية بثلاث طاعات • طاعة الله • وطاعة الرسول • وطاعة
الأمر • وقد علمنا أن طاعة الله تكون بطاعة كتابه • وطاعة الرسول بطاعة سنته
وأفعاله • فمن الواضح أن طاعة الله • وقد تناقضت الأدلة القطعية
براهين النيرة على أن المراد بأولى الأمر " الخليفة والامام " الذي ينفذ أحكام
وسنة رسول الله • ويقوم بمصالح الأمة وسدكم ويستطيع الأحكام من الشريعة عند
إزالة براهينه واجتهاده • وإنما ذهبنا إلى هذا القول لوجوه •

١ - قاعدة " القرآن يفسر بمفهومه بعضا " فإذا رجعنا إليه نجد في نفس هذه الصورة قول الله تعالى (وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به) ولو ردوه الى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعله الذين يستنبطونه منهم " (٨٦/٤) .

ذكر الله سبحانه في هذه الآية تلك الآفة التي كانت تخرج فيها أخبار الأمن والخوف ، والفتح والهزيمة ، فسمعها الناس ، فيضطربون من أجلها اضطرابا شديدا ، وقد أشاع في عهد النبي صلى الله عليه وسلم بعض المنافقين مثل هذه الأخبار ، فبلغ منها بعض ضعفة الأيمان من المعلمين ، فأمرهم الله أن إذا سمعتم هذه الاشاعات ، فلا تأخذوها على علانها ولا تصدقوها بل ردوها الى الرسول وإلى أولى الأمر " لتحقيقوها ومحصوها ومستنبطوها ما يجب استنباطه .

فالحالة التي ذكرت في الآية ، حالة الحرب والصلح والأمن والخوف ولا يغفل عن على أحد أن النظر في هذه الحالة والاهتمام لها واتخاذ التدابير اللازمة لها من وظائف الأمراء والحكام ، لا من وظائف العلماء والقضاة ، لأن المسئلة مسئلة نظام البلاد ، وقيام الأمن ، ونشوب الحرب ، لا مسئلة الحلال والحرام التي ينظر فيها العلماء ، فاذن لا مناص من أن نعلم بأن المراد " بأولى الأمر " هم الذين بيدهم الحرب والصلح وتنظيم البلاد وسياسة المباد ، والذين من شأنهم أن يحققوا مثل هذه الأخبار المؤثرة على السياسة العامة وما هم الا الأمراء والحكام (١) .

١ - المنار . هذا الوجه حجة على الكاتب لا له فان الرسول صلى الله عليه وسلم كان عند نزول الآية هو الامام الأعظم وصاحب الأمر في السياسة وغيرها ولم يكن معه أمراء ولا حكام فتعين أن يكون المراد بأولى الأمر أهل الشورى من رؤساء الأمة وأهل الرأي فيها إذ كان صلى الله عليه وسلم يأخذ برأيهم واستنباطهم في أمر الأمن والخوف وسياسة الحرب وغيرها لقوله تعالى (وشاورهم في الأمر) وهذا نص في موضع النزاع

"أولى الأمر" الحكم والولاية بالاية التي قبلها والتي ذكر فيها الامراء والحكام قد روى الطبري بسند صحيح عن ميمون بن مهران وابي هريرة وغيرهما "أولو الامر" هم الامراء "وعند ابن حزم - الصحابة والتابعين الذين نقل عنهم هذا التفسير قبلوا ثلاثة عشر رجلاً".

تحم قد روى عن بعض الصحابة والتابعين ان المراد من أولى الامر العلماء فقال جابر بن عبد الله رضى الله عنه "انهم اهل العلم والخير" وقال مجاهد وعطاء وابو المصاليه "انهم العلماء" ولكن لا تدارى بين التفسيرين ، وذلك ان الشريعة جملة الحكومة والولاية مركزا لساكنة شئون الامم الدينية والسياسية والعلمية ولم تكن المناصب والوظائف قد انقسمت الى ذاك الحين ، فأمر المؤمنين كما كان حاكما ومائما كذلك كان عالما وفيها ايضا . فالصحابة والتابعين الذين فسروا أولى الامر "بأهل العلم والخير" قد أحسنوا التفسير ، اذ اثبتوا به ان امراء المسلمين يجب ان يكونوا من اهل العلم والخير ، لا مانعهم المتأخرون من هذا القول بأنهم شهدوا به تلك الفتنة التي عرفت "بالعلماء والفقهاء" بعد انقراض ذلك العهد وانهدام نظام الجماعة الشرعية لان هذه الفتنة لم تخطر على بال احد من الصحابة والتابعين في الصدر الاول ، ومن هذا القبيل ما نقله ابن جرير ايضا عن عكرمة انه قال "أولو الامر هم ابو بكر وعمر" اي ان المراد من أولى الامر الخلفاء والائمة مثل ابي بكر وعمر رضى الله عنهما (٢)

وهذا التفسير مطابق لحالة البلاد الاجتماعية اذ ذاك ، لان بلاد الحبشة كانت في الفوضى قبل الاسلام ولا سيما قريش مكة ، فانهم لم يكونوا يعرفون الامار ولا ينقسمون لاحد من الناس ، فجاءهم الاسلام "بنظام الجماعة" و "نظام الامارة" وأوجب على كل الناس ان يطيعوا الامراء ويلتزموا الجماعة والى هذا ذهب الامام ←

١- ليس في الاية التي قبلها ذكر للحكام والامراء وانما هي خطاب للامة بانه يجيب على من اوتمن منهم على شيء ان يؤديه الى اهله وعلى من حكم بين الناس بولاية عامته او خاصة او تحكيم من بعضهم ان يحكم بالعدل .

٢- ليس هذا معنى قوله بل معناه هم اهل الشورى عند الرسول صلى الله عليه وسلم كابي بكر وعمر لانه كان يستشيرها في كل امر .

الشافعي رضي الله عنه كما نقل عنه الصقلاني في الفتح حيث يقول " ويرجع الشافعي الأول واحتج بأن قريشا كانوا لا يعرفون الامارة ولا ينقادون لأمره ، فأمروا بالطاعة لمن ولي الأمر " ولذلك قال صلى الله عليه وسلم " من أطاع أميري فقد أطاعني " (فتح الباري ١٩١/٨) (١) .

٥ - هذا هو قول أكثر فقهاء قام في الأمة الاسلامية ، الا وهو الامام محمد بن اسماعيل البخاري رضي الله عنه ، فقد بوب في كتاب الأحكام من صحيحه بابا على هذه الآية فقال " باب أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم " وروى تحت حديث ابن هبيرة " من أطاع أميري فقد أطاعني " فأثبت بهذا أن أولي الأمر في مذهبه أيضا هم الأمراء والأئمة لا الفقهاء والعلماء كما قال ابن حجر في شرح هذا الحديث " في هذا إشارة من المصنف الى ترجيح القول الصادر الى أن الآية نزلت في طاعة الأمراء ، بخلاف ما قال نزلت في العلماء " (فتح الباري ١٩١/١٣) (٢) .

٦ - أن أقدم التفسير بهذا وأغزرها مادة تفسير ابن جرير الطبري ، ومكانه أحسنه في معرفة تفسير الصحابة والتابعين واستقصائه معلومة ، وهو قد رجح هذا القول بحد أن ذكر سائر الأقوال .

٧ - لا يذهبن عن ذلك أن الأقوال الكثيرة في تفسير القرآن إنما جاءت ممن تأخرين الذين سحرت ألبابهم الفلسفة اليونانية في زمن كانت المعجزة المعجزة اندست في الفكر والنظر ، واستولت على العلوم والمعارف ، وتقهقرت الصريفة المألفة الصالحة وهجرت علوم السنة وعشق الناموس التمتع في كل شيء ، حتى فسي لوم الدينية ، ذلك التمتع الذي ورد فيه " هلك التمتعون " .

ان طاعة الأئمة والأمراء واجبة في المعروف باجماع المسلمين والنصوص فيها معروفة ومنهنا هذا الحديث الصحيح ولكن هذا ليس دليلا على تفسير الآية بما ذكر .

قد صرح الكاتب من قبل كثيره بأن المسألة خلافية فتراجع بعض كبار العلماء لأحد الوجوه التي يحتملها اللفظ ليس حجة على غيرهم وإنما المعبرة بقوة الدليل .

وأما السلف الصالح فلم تكن في عصرهم مناورات ولا مشاجرات ولا قيل ولا قال بل كانوا يفهمون كتاب الله بملكهم اللغوية • بدون أن يتكلفوا أو يتعقروا • أو يجهدوا أفكارهم في بحث المعاني البعيدة واختراع الاحتمالات الباردة • فإذا سمعوا كلمة • أولى الأمر • التي نحن بصدد ما فهموا منها • بلا أدنى تكلف معناه • المتبادر إلى الذهن • مثل ما يفهم الأعراب والوطاع •

ولكن الدهر كان خبا أمثال لغير الدين الرازي الذين لا توضحهم هذه العبارة والمذاجة • فجاءوا من بعدهم يخترعون لكل كلمة معاني عديدة واحتمالات كثيرة ويظهرون بذلك براعتهم وجودة ذهنيهم • فلا تروك أقاويل المتأخرين واختلافهم لأنهم إنما اتخذوا العلم صنعة لهم وصاراة بينهم • بل أن كنت تكفد الحق فمليك بالعنة النبوية الصحيحة والآثار الثابتة من الصحابة والتابعين لهم بإحسان • فما واقفهم • فخذوه وما خالفهما فأشوب به عرض الحائط • إذ صاحب القرآن صلى الله عليه وسلم أعلم به وكذلك أصحاب الذين شهد الله عليهم يعلمهم ورضى الله عنهم ورضوا عنه (١)

ومالي لا أعجب من هؤلاء الناس الذين يعرضون عن السلف الصالح ولا يفهمون لهم وزنا في تلك العلم التي اخترونها اختراعا • لأجل أنهم لم يكونوا يعلمون أصول الفقه وعلم الكلام اليوناني اللذين ما أنزل الله بهما من سلطان • فلم لا يعلمون لهم في علم الكتاب الإلهي • أليس بمجيب أن يؤمنوا بأن القرآن نزل على محمد العربي صلى الله عليه وسلم ثم يستشهدوا في فهم معانيه بأرطاطالاهس اليوناني • نعم ان هذا شيء عجاب •

وأما الذي غير الرازي وغيره في فهم الآية فإنما هو ذكر الطاعة لأولى الأمر معطوفة على طاعة الله ورسوله • فقالوا كيف تكون طاعتهم مثل طاعة الله ورسوله • وأين الملوك والملاطيين من هذا المقام الرفيع • فما غترعوا بذلك معني يوافق فلسفتهم • وقالوا

١ - هذا الكلام حق ولكنه وضع هنا في غير موضعه إذ ليست هذه الحالة مما خالف الخلف فيها السلف ولا مما أكثرها فيها الأقوال •

هم " العلماء والقهاء " ولقد تعبوا سدى * لأن المسئلة واضحة جليلة لا تحتاج في حلها وظهورها الى التفلسف البارد * وذلك لأن القرآن والسنة فريضة وقانون وماذا يجدى القانون اذا لم تكن وراءه قوة منفذة — فطاعة هذه القوة * طاعة القانون نفسه وطاعة واضعه — ولا يخفى على أحد من الناس حتى الصوقة والاعراب أن طاعة والى البلد طاعة للملك الذى أرسله وعينه * وعيانه * عصيان للملك بسلا يرب حق أن الذى يحارب الشرطى فى عمله الرسمى يعد مخالفا للقانون وللقسمونة التى سنته — وانما تخطئ الناس فى فهم الآية لأنهم لم يتأملوا النظام الشرعى الاجتماعى * اذ أنهم لو اتمعنوا النظر فيه لما تحيروا هذا التحير ولعلموا حقيق العلم بأن لابد لقيام الشريعة ومقاومة الأمة من قوة مركزية * وهى تلك القوة (٢) الخلافة والامام والأمراء ونوابه ولو أنهم فعلوا ذلك لما خفى عليهم معنى " أولى الأمر " وقد علمنا أيضا من آية " فان تنازعتم فى شىء فارجعوه الى الله والى الرسول " ان بين الخلافة الاسلام والبابا المسيحى بونا شاسعا اذ البابا ليس بيده الخلافة الأرضية بل هو صاحب السلطنة فى ملكوت السماء * وقد هد الاسلام هذه العقيدة كفرا وشركا * فقال تعالى " اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله " وأما الخلافة الاسلام فهى الحاكم والسلطان فى الأرض فقط * يذود عن حوزى الأمة وينفذ أحكام الشريعة ولا يملك أدنى سلطة فى السماء * ولا بيده القوة التشريعية * فهو لا يستطيع أن يفسر من الشريعة شيئا * ولا أن يزيد فيها أو ينقص * بل عليه أيضا مثل سائر آحاد الأمة أن يخضع لها خضوعا تاما * واذا تنازع فى شىء مع المسلمين فلا حق له بأن يحملهم على حكمه ورأيه الخاص * بل يجب عليه وعليهم جميعا أن يرجعوا الى كتاب الله وسنة رسول الله * فيحكموهما بينهم ويسلموا لهما تسليما * قال الله تعالى

١- قد نقل الكاتب هذا القول عن بعض السلف وجمع بينه وبين القول الأول السدى اختاره وأطال فيه فمزوه الى الرازى خطأ وهبه صوابا فلماذا أنعى عليه بهذه اللائمة فى قول سبقه اليه من ذكر من السلف ؟ على أن الرازى على تفلسفه وكثرة غلطه قد اهتم فى تفسير أولى الأمر الى الصواب فى الجملة كما بينناه فى تفسير الآية فى موضعها من التفسير *

٢- الحق أنهم عرفوا ما رهاهم بجهلك كما تقدم *

" فان تنازعتم في شئ فردوه الى الله وإلى الرسول " ففى هذه الحالة لا حكم للخليفة ، وانما الحكم لله وللرسول ، وكذلك طاعته طاعة الله ورسوله ، ولا جيل هذا كبر الفعل فى الآية فقال " أطيعوا الله وأطيعوا الرسول " ولم يكرره ففى " أولى الأمر " ليعلم أن طاعتها مطلوبة أصلا وطاعة أولى الأمر ليست كذلك بل انما جعلت ليدل على طاعة الله ورسوله (قاله الطيبن فى الشرح) .

ولذلك لما أراد أمراء بنى أمية أن يحملوا المسلمين على طاعتهم فى المنكر والبدعة والظلم ، قائلين أليس الله أمركم أن تطيعونا فى قوله " وأولى الأمر منكم ؟ " رد عليهم بعض الأئمة من التابعين أحسن رد فقال أليس قد نزع عنكم بقوله " فان تنازعتم " ؟

والحاصل أن الله سبحانه فرض على الأمة الإسلامية بهذه طاعة الخليفة والامام ، اذ به قيام الجماعة وبقاء الهيئة الاجتماعية (*)

(*) المنار . من أراد الوقوف على ملخص أقوال السلف والخلف فى أولى الأمور وتحقيق الحق فيها وفهم الآية حق الفهم ومعرفة مصلحة المسلمين فى ذلك اليوم فليراجع تفسيرها فى الجزء الرابع من تفسيرنا من صفحة ١٨٠ - ٢٢٢ .

فصل

شرح حديث الحارث الأشعري

=====

أما طاعة الخليفة في السنة • فقد تضافرت الأحاديث الصحيحة في وجوبها واشتهرت
اشتهارا عظيما حتى انه لم يصل حكم بعد عقيدة التوحيد والرسالة الى هذه الشهرة
والتواتر —

وما أنا ذا ذاكر ههنا أولا حديثا من مسند الامام أحمد وسنن الترمذي يوضح
نظام الاسلام الاجتماعي توضيحا حسنا • فأقول •

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " أنا آمركم بخمس • الله أوبى بهن • الجماعة
والسمع • والطاعة • والهجرة • والجهاد في سبيل الله — فانه من خرج من الجماعة
بعد شهر فقد خلع ربة الاسلام من عنقه الا أن يراجع — ومن دعا بدعوى جاهلية
فهو من جثى جهنم — قالوا يا رسول الله • وان صام وصلى ؟ قال وان صام
وزم أنه مسلم " أخرجه الترمذي وأحمد والحاكم من حديث الحارث الأشعري على شرط
الصحيحين • قال ابن كثير هذا حديث حسن وله شواهد •

فأمر النبي صلى الله عليه وسلم بخمس •

أولهن " الجماعة لى يجب على الأمة أن تجتمع على الامام وتمشي مرتبطة بمركزها
اجتماعي • وسرى كثيرا من الأحاديث التي تحذر من الاختلاف والفرقة وتمدها حياة
أهلية شيكانية • إذ الاسلام لا يحسب الحياة الفردية حياة • وانما الحياة عند
الحياة الاجتماعية "

ما " الجماعة " ؟ كتلة من الآحاد • تربط بعضهم ببعض رابطة " الاتحاد "
الاختلاف " ويكون فيهم " الامتزاج " و " النظام "

هاتيك الجماعة ولوازمها الأربعة • الاتحاد والاختلاف والامتزاج والنظام •

أما " الاتحاد " فهو أن يكون الأفراد متصلا بعضهم ببعض • فلا عوامل
فرقة • تفرقهم ولا تشتت يبددهم • بل يكونوا جميعا متشاورين • وأن تكون

أعمالهم كذلك متوافقة غير متخالفة ، وجهتها واحدة وغايتها واحدة .

وأما " الائتلاف " فهو أخص من " الاتحاد " إذ الاتحاد مجرد الاتصال " والائتلاف " هو الاجتماع والاتصال بتناسب صحيح وترتيب حسن ، فيقدم فيه ما حقه أن يقدم ، ويؤخر فيه ما حقه أن يؤخر ، ووضع الفرد في الجماعة بالسكان الذي يؤهل^{له} استعداده وقوته ، فلا يستخدم في الشرطة من هو أهل للمبادأة والقيادة ولا يرفع — إلى رياضة السباحة — من لا يصلح إلا للشرطة .

وأما " الامتزاج " فهو أخص منهما ، ويراعى فيه اتحاد الكيف أكثر من اتحاد الكم — أي ينظر في طبائع الأفراد حيث استعدادهم الاجتماعي ، فيلحق كل واحد بالذي يكون أكثر موافقة لطبعه ليتحدا تمام الاتحاد ، إذ لو لم يراع ذلك لا يتأنى الاتحاد بين أفراد مختلفة الأمزجة والطبائع ، كما لا يتحد الزيت والماء — وإن الله سبحانه كما خلق العناصر ليتكون باجتماعها المناسب مركب مخصوص ، كذلك خلق الأفراد ليكونوا باجتماعهم " جماعة " فالأفراد " عناصر " والجماعة " مركب " وكما أن العناصر لا تكون " مركبا " إلا إذا امتزجت امتزاجا تاما ، كذلك الأفراد لا تكون " جماعة " إلا بهذا " الامتزاج " فاذن يجب أن يتمازج الأفراد بعضهم ببعض ويفتروا وجودهم في سبيل تكون الجماعة بحيث بعضهم من يراهم شيئا واحدا ، ولا يكون ذلك إلا بعد الامتزاج التام .

وأما " النظام " فهو أن يحل كل فرد في الجماعة محله ، يدور في دائرته ضمنى في داخل حدوده ، ومحل عمله الاجتماعي فيه .

ولا تتحقق هذه الأمور إذا لم تكن قوة مهيمنة على الاجتماع ، وقد مدبيرة للجماعة ، فتوحد الآحاد المنتشرة وتؤلف بينهم وتنجز بعضهم ببعض وتفترق في نظام الجماعة — فلا بد إذا من " إمام وخليفة " ولا منفر للأفراد من طاعته والخضوع له إذا كانوا يريدون أن يحيوا حياة اجتماعية طيبة — فقام الإمام أو الخليفة في الهيئة الاجتماعية مقام النقطة من الدائرة ، وعمله بمنزلة الدائرة نفسها ، فأحياء الأمة يدورون حول هذه الدائرة ، وهي تدور حول تلك النقطة — وبهذه الصورة تتكون من اجتماع الأفراد " الجماعة " مصيرون كاتبة واحدة محسنة العمل .

إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد — وهذا أمر المسلمون ومنعوا من الوحدة
الفرقة وأوجب عليهم أن لا يعيشوا بدون امام • سواء كثروا أو قلوا • حتى لو كانوا
ثلاثة وجب عليهم أن يؤمروا أحدهم لقوله صلى الله عليه وسلم " إذا كان ثلاثة ففى
سفر فليؤمروا أحدهم " •

وقد جمل الله سبحانه صلاة الجماعة — التى هى عماد الدين ومثال كامل
للمقائد والأعمال — نموذجاً ليهتدى بها المسلمون الى تنظيم حياتهم الاجتماعية
فانظر كيف يجتمع مئات الألوف وأوطانهم متتالية • وجهاتهم متباعدة • وألوانهم
متفاربة • وألبستهم متخالفة • قهينما هم فى هذه الحالة • إذ — تخرج منهم التكبيرة
فيتحول الانتشار الى الاجتماع والتفرق الى الائتلاف • فهم وقوف فى صف واحد •
أجسامهم متلامسة • أكتافهم متلاصقة • أقدامهم متقاربة • وجوههم متوجهة الى جهة
واحدة • إذا كانوا قياماً • فكلهم قيام • كأنهم بنيان مرصوص • وإذا كانوا قعوداً
فكلهم قعود • باطنهم كظواهرهم متحد ومختلف • قلوبهم بذكر واحد مشغولة •
وأصوتهم للفظ واحد مريدة • ثم انظر أمامهم فلا ترى هناك الا رجلاً واحداً
يؤمهم ويقودهم • متى شاء أقامهم • ومتى شاء أقمدهم • كلهم طوع أمره وسامعون
لكلمته • لا يخالفونه ولا ينازعونه • بل يتبعونه ويقتدون به ويطيعون له • (١)
هذه هى " الجماعة " التى يطلب بها الاسلام • وأمر المسلمين أن يجملوا
هقيمتهم الاجتماعية على أسلوبها لا كما يزدحم الهج فى الأسواق •

هذا وكل ما ذكرناه من أوصاف الجماعة وعصائصها مأخوذة من الكتاب والسنة •
وقد أفلنا ذكر الفوائد عدا لىبق المقام وعدم الحاجة اليها •
٢ — ثانيهن " السمع " وهو أن تستمع الأمة أوامر الامام وتستجدى به فكلمة
" السمع " توضع أن مقام الامام فى الأمة مقام المعلم والمرشد — فعليها أن تتلقى
أوامره بالقبول وتسترشد به ففى مهماتها •

٣ — الثالث • وظاهر أن هذا الاتباع يتقيد به الامام كالمأموم بشروط الشرع فمباشرة
فيه لاقامة المأمومين واعتمادهم ليست مطلقة فاذا خرج عن الشرع فافرقوه وأنبسوه
وكذلك الامام الانعام الأعظم وهو الخليفة وقد أشار الكاتب الى ذلك فى الكلام
على الطاعة •

٣ (ثلثهن " الطاعة " وهي أن يطاع الامام طاعة تامة ، وفرض اليه جميع القوى العاملة تفويضا كليا ^(١)) وحمل كل فرد من الأمة بأمره بدون أدنى عذر ولا فجور ومعلوم أن الطاعة في المصروف لا في المنكر .

٤ - رابعهن (الهجرة) وهي من " المهجر " ومعناه " الترك " ففسى المفردات " الهجر والهجران مفارقة الانسان غيره ، أما بالبدن أو باللسان أو بالقلب والمهاجرة مضاربة الغير ومشاركته " (صفحة ٥٥٨) وأما في الشريعة فهي أن يترك رجل أو جماعة الملائد الدينية والرقائب النفسية في سبيل الحق والسعادة فشلا ^(٢) إذا ترك أحد لفرض سام وقصد حال ماله وراحته وأهله وأقاربه وعشيرته وبيته ووطنه يمسى عليه هذا في الشريعة " الهجرة الى الله والذهاب الى الله " وقد غلب استعمال " الهجرة " في ترك الوطن ، لأن تركه يحتلزم ترك المال والأهل والاصدقاء وكل ما يحب وانف في الوطن - ولذا إذا أطلقت يكون معناها ترك الوطن ، وإذا أضيفت الى شيء يفهم معناها حسب الاضافة ، قال النبي صلى الله عليه وسلم " وإنما لكل امرئ ما نوى " فمن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته الى ما هاجر اليه (البخاري عن عمر رضي الله عنه) فالهجرة أنسواع وأقسام تجدها مبهنة في الكتاب والسنة وليس هنا محل تفصيلها .

٥ (خامسهن " الجهاد في سبيل الله " وهو من " الجهد " ومعناه " استغراق الوسع في مداومة المدور ظاهرا أو باطنا " (مفردات) فالجهاد هو المعنى المبلغ لدفع الأعداء والدود عن الأمة ، ويكون باللسان والمال والنفوس ، وكل ما يبذل في سبيل الله حسب الحاجة والضرورة فهو جهاد في سبيل الله كما قال النبي صلى الله عليه وسلم " جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وأنسكم " (رواه أحمد وأبو داود والنسائي وابن حبان عن أنس رضي الله عنه)

١ - المنار : الحق أن الخليفة مقيد في الاسلام بمشاورة أهل الحل والعقد كما

انه مقيد بالشرع ، فتفويذه ليس مطلقا .

٢ - الهجرة الشريعة هي ترك دار الكفر الى دار الاسلام وكذا كل مكان لا يستقيم فيه أن يقيم دينه بحرية وليس هو المعنى الشرعي الأصلي ويحتجون له بحديث " والمهاجر من هجر السوء " وهو وصف للمهاجر الكامل كحديث " المسلم من سلم المسلمون من يده ولسانه " فان لم يهجر السوء لا يكون صادقا في هجره وطله لأجل الحق الذي يرضى الله تعالى كما يؤخذ من حديث النيسية .

ولسنا في حاجة الى أن نثبت أن على هذه الخمسة تتوقف الأمم وقيامها ومقارها
أن كل من له ذرة من العقل يعلم حق العلم أنه لا يستطيع أمة أن تنفوز في معترك
الحياة بدونها ، أو تنجح في أعمالها صغيرة كانت أو كبيرة بغيرها ، فسواء عليها
أن تسعى لحصول خير من الشر ، أو تذهب لكشف القطب الشمالي ، فهي على كل
حال تحتاج الى هذه الأصول الخمسة ، والتي تمرّض عنها تخسر ثم تعقظ حتمًا
وإن كل ما نراه الآن في هذه المعمورة العظيمة من الحضارة والرقى والصناعة ،
نتيجة لهذه الخمسة : الجماعة ، والصنع والطاعة والهجرة ، والجهاد .

إن النزاع والخلاف الذي ملأ الخافقين ، إنما هو ناتج من شيء واحد ، وهو
تعدد الأسماء لمسمى واحد ، وكثرة المصطلحات لحقيقة واحدة ، فأنك إن دققست
الغظر في جدال الناس ، ترى معظمهم متشاجرين في الأسماء والألفاظ والمصطلحات
مع أنهم لو جردوا الحقيقة عن الظواهر لعلوا أنها واحدة ، وهذا الجميع سمسوا
لكنهم لسوء الحظ لا يفعلون ذلك فيخطئون بطول عمرهم في تسمية الألفاظ والمصطلحات

بمناطحون عليها .
ولسنا في حاجة الى أن نثبت أن على هذه الخمسة تتوقف الأمم وقيامها ومقارها
قد كثير مثل هذا النزاع في العلوم والمعارف ، واليوقى من ألا يتعدى الظواهر
لا يرى الحقيقة ويتطاوله الخاص المصنوع من الألفاظ والمصطلحات ، بل يراه مجرّدة
كما هي . وهذا القام مقام الرسخ في العلم وسيد الشيخ أحمد ولي الله صاحب
" حجة الله البالغة " ، يعلم الجمع بين المختلفات ، ومائة أصحاب العليين
والإشارات بسورة " يشهد الوعدة " مقصدون به نفس هذا القام الذي يطلسه
المالك بعد زوال الحجب والاستار عن منبه .

فإذا بحثت بعد هذا زعم أن الجماعة والصنع والطاعة والهجرة والجهاد -
من تلك الحقائق العامة المسلمة التي لا ينكرها أحد من البشر - والأمم باجمعيها -
سائرة عليها من أول خلقها وتمسكة بها أشد التمسك ، وإنما النزاع فيها والانكسار
عليها جاء من تلك العملية التي ذكرناها آنفاً ، أي التعبد بالأسماء والمصطلحات
التي جعل هذا أنكرها كثير من الناس لأسرارها الإسلامية ، ولكنهم يقبلونها ومعالجون

بها بغير هذه الأسماء . والذي يرد هذه الحقائق نفسها بحجم من الحياة ولا يرى
لن دنياه الا الخيبة والخسران .

وها أنا ذا أسوقها اليك واحدة واحدة مع بيان وجيز لتفهم ما مر حتى الفهم ،
فانظر الى أولهن ، وهي " الجماعة " التي علمت معناها وخصائصها ، قل أي شيء مهم
بدون الجماعة والاجتماع ؟ دع ما قالت فيها الفلاسفة والحكماء فانه دقيق يخفى على
كثير من الناس ، وألق عليها نظرة عامة ترى أن الفرض من الهبات والاحزاب والجمعيات
والمنتديات والجالس والمحافل والبرلمان ، بل من الأمة والوطن والجيش " الجماعة
والالتزام الجماعة " يمكن لأحد أن يستغنى عن الجماعة ؟ حتى أن أولئك الذين
يضمخون في الفانيات عراة متوحشين يضطرون الى الاجتماع اذا أهمهم أمر ، أو وقع
فيهم شقاق ؟ يجتمعون للبحث في شؤونهم واصلاح ذات بينهم ، ولو تحت شجرة
على الشراب — فتلك " الجماعة " .

ولكن ماذا تخفى الجماعة اذا لم يوجد من يرأسها ويرشدها ؟ ولذا اذا اجتمع
بضع رجال لأمر جامع بينهم ، تبادروا الى انتخاب الرئيس وقالوا اذا لم يرأس الجلسة
أحد لا تكون قانونية ونظامية ، وكذلك اذا أرادوا تنظيم جيش قسمه فرقا من ألف
ومائة وعشرة ، وجعلوا على كل منها رؤساء (أي تابعين لرئيس واحد وهو القائد
العام) وقالوا بدون هذا لا يكون الجيش جيشا ، ولا يستطيع أن يحمل عسلا
فاذا كان قولهم هذا عن جماعة من عشرة أو خمسة ، فماذا يقال عن أمة مكونة
من ألف وملايين من الرجال والنساء أفلا تحتاج الى قائد يقودها ورئيس يرأسها ؟
وهل تقدر على عمل اجتماعي بدون الأمير ؟ ثم أي فائدة من الأمير اذا لم يطلع ؟
خذ لك أقرب مثال اليك وهو بيتك الذي تسكنه مع زوجتك وولديك — فان عصمت
الزوجة أمك وتثمر عليك أولادك . أفلا تقضب عليهم وتقول والناس معك هذا بيت
لا يفلح أهله أبدا ، لأنه لا نظام فيه ولا راحة ، بل هو مهتلى بحرب أهلية .
وهل هذا الذي تقول غير " الجماعة " والسبع ، والطلعة " — ؟ فكما أن هذا
البيت لا يفلح ، كذلك لا تفلح الأمة التي لا جماعة فيها ولا — سبع ولا طاعة " —

وأما " الهجرة " فهجر منها كثير من الناس ، لأنهم يحسبونها من بقايا ذلك
المهد الذي كان فيه الانسان في جهل ووحشية وهمجية وصابا بالجنون الدينى—
فكان يهلك نفسه ويقتل عواطفه ويترك راحته لأجل الدين — ولكنهم يفعلون أم مسا
يغفرون منه ، تدعو اليه البشر مدنيتهم أيذا ، وانك قد علمت معنى " الهجرة " وهو
أن يؤثر الانسان المقاصد العليا الدنيا — وأن اضطر في هذه السبيل الى هجران
أهله وماله ووطنه وأمه ولذاته هجرها فرحا مطمئنا ، نفل أى نجاح بمادته الانسان
في العلم والعمل ان لم يكن صدره مملوا بهذه العاطفة العالية ؟ وما هذا
القدم المدنى والعلمى ، وهذه الاختراعات المجيبة والاكتشافات المدهشة ،
والأموال الكثيرة ، والتجارة الواسعة ، والمستعمرات العظيمة ، ووسائل المعيشة
المتنوعة ، ورقى البلاد ، وعلو الأمم ، وسعة المدنية ؟ ألست نتائج " الهجرة "؟
وثمراتها ؟ وذلك لأن الانسان — أفراد وجماعات — لو لم يؤثر المقاصد العالية
والمزائم الكبيرة على راحته وأهله ووطنه ولم يهجر كل شيء في سبيلها لما رأينا
اليوم ما نراه في الدنيا ، بل لرأينا الجهل مقام العلم ، والوحشية مقام المدنية ،
والخراب مقام العمران — وماقولك في علم الطب وتقدم البلدان وعلم الحياة الانسان ؟
أكان يمكن أن تصل هذه العلوم الى ما وصلت اليه ، لو لم يهاجر كثير من البشر
في سبيلها ، لأجل معرفة تفاصيلها واستقراء جزئياتها ؟ لو لم يهاجر كولومبوس
لما علمنا عن نصف الدنيا شيئا ، ولو لم يهاجر الصينيون لما شاهدنا في واشنطن
وكبروك المباني المنيخة والقصور المالية ، ولو لم تهاجر الأمم الأوروبية لما أصبحت
أغنى الأمم — عجا . اذا رأوا المهاجرين زرافات ووحدانا يقصدون الى منطقة
القطب الشمالى قالوا هؤلاء علماء الرجال حقا كمل العلم فيهم ، وحلت الوطنية
الصادقة في قلوبهم ثم اذا علموا أنهم هلكوا على بكرة أبيهم دون أن يقالوا
بقيتهم ، أقاموا عليهم المآتم ورثوهم وبكوا عليهم وقالوا مات النجباء . ولكن اذا
سمعوا الشريعة الالهية تسمى مثل هذا العمل " بالهجرة " وتدعو الناس اليه
في نفروا منه وأنكروا وأسودت وجوههم — تراهم يمجدون أولئك الرجال الذين هجروا
أوطانهم لكشف ضيق الليل وهلكوا في مجاهيل أفريقية ، ولكن اذا علموا برجال

هاجروا في سبيل الحق واعلاء كلمة الله • ذمهم اشد الذم وسوءهم • مجائسين وهمجا • ثم اذا راوا نيوتن يهجر نوحه ويحمر الليالي الطويلة ليحقق • ناموس الشغل • اعظموه وسوءه بأصم • كريمة • ولكن ان راوا رجلا يجهد نفسه مثل نيوتن لا لناموس الشغل بل لناموس نجات العالم وسعادته وهدايته أنكروا عليه عمله وعدوه من الوجوه • فما هذا الجنون ؟ وما هذا التناقض ياترى ؟ ترى اليوم الأمم المغتربة تمتد أن فلاحها وحياتها في الاستعمار (كانونيل ستم) — وتتصادم وتتناطح ويهلك بعضها بعضا لأجل المستعمرات — ولكن ما الاستعمار ؟ اليس الغرض منه ترك الوطن والهجرة من ارض الى أخرى • وتعميرها واستحصال الثروة منها • وتكثير غنى الأمة بها ؟ فما رأيك بعد هذا ؟ ألست الدنيا كلها متمكنة بنظام • الجماعة والسع والطاعة والمهجرة ؟ نعم هي متمكنة بها الا أنها لاتصحبها بأسانها الاسلامية •

وأما " الجهاد " فما أكثر استغلال بعض الناس له • وما أشد انكارهم عليه • اذا سمعوه جعلوا أصابعهم في آذانهم واضطربوا منه اضطرابا شديدا • وقالوا الاسلام يحتل الدماء البريئة • ويدعو البشر الى القساوة والبربرية • والمجزرة الانسانية • فهو دين وحشية وهمجية — ولكن ما أشد استعائهم لقول " دارون ورسل وويلس " ان من الحقائق الثابتة " ناموس تنازع البقاء " • وناموس — انتخاب الطبيعة " • وناموس بقاء الأصلح " فاذا سمعوا هذه الكلمات أصفوا اليها هادئين • ساكنين • وآمنوا بها مصدقين • موقنين • ولم ينزعجوا من هذه النواميس القتالة والداعية وليس سفاك الدماء • بل قالوا انها كلها حق • ومفيدة بالبراهين القوية • والمشاهد الصينية • لانا نرى الحياة كلها عراكا ومزاحمة • الانسان وما دونه من الأحياء كله يزاحم معارضة في الحياة ويدافع غمزه ويهلك ويحل محله • وهذا طبيعي • ولا بقاء لحى بدونه • ثم اذا أخبرهم بأن النواميس التي يخضع لها سائر الموجودات يخضع لها الجنس البشري • وأن الأمة التي تثبت أنهبها أصلح لتقيام بالحسب والهداية • تميز وتحيا • والأمة الفاسدة وغير الصالحة تهلك وتفتق • وتحصل محلها الأولى • لينظره على الدين كله • لم يقبلوا هذا وتولوا عنه مدبرين وليسوا

رجعوا الى رشدهم لضحكوا على أنفسهم اذ الذي يردونه باسم "الجهاد" (١) يقبلونه بأساء أخرى ناقصة الدلالة على مصابها . والله يهدي من يشاء الى سواء السبيل .

فصل

الجماعة والتزام الجماعة

=====

وفي هذا الحديث الذي نحن بصدده أمر مهم يستحق أن نتأمل فيه ، وهو أن الشيعة نصت على أن الحياة الاسلامية إنما هي في التزام الجماعة وطاعة الخليفة ، والحياة الجاهلية في الانحراف عنها . ولقد أوضح القرآن أن الجاهلية هي التفرق والتشتت وانتشار الكلمة وعدم الاجتماع على مركز واحد ، وأن الحياة الاسلامية هي الحياة الاجتماعية والاتحاد والائتلاف بين الأمة واجتماع الآحاد المنتشرة . قال تعالى (واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها) الخ .

فالجاهلية الفرقة والاسلام الجماعة ، ولذا أكد النبي عليه الصلاة والسلام مرة بعد مرة أن من يحمي عن الجماعة وينزع يده عن طاعة الخليفة ، يكاد يخرج من الاسلام ، وتكون ميته على الجاهلية لا على الاسلام وان صلى وصام وزعم أنه مسلم .

وما هي ذي بعض الاحاديث الصحيحة المشهورة في هذا الباب .

قال صلى الله عليه وسلم " من أطاعني فقد أطاع الله " ومن أطاع أميرى فقد أطاعنى ومن هوى أميرى فقد عصانى " رواه البخارى ومسلم عن أبي هريرة وفي رواية أخرى لمسلم " من أطاع الأمير " أى أطاع أمام المسلمين .

وقال " اسمعوا وأطيعوا وان استعمل عليكم عبد حبشي كان رأسه زبيبة " رواه

البخارى ومسلم عن أنس .

١ - المنار . أوجز الكاتب واختصر في بيان هذه المسألة وأسهب فيما عداها وأطنب . صواب القول في الجهاد الاسلامي أنه بذل الجهد في حفظ الحق ودفء الباطل ، لتقرير المصالح وإزالة المفاسد ، وأما الجهاد العلم غير المقيد بهداية الاسلام فهو بذل الجهد من كل حسي لحفظ حياته ومناقضه شخصاً كان أو جماعة بالحق أو بالباطل ولكن قصروا في بيان حقيقة الاسلام حتى أهله وأعداؤهم جدوا وشعروا في تصويره بخد حقيقته ففقدوا منه حتى الكثير من الالبيين للباسه .

يظهر أن هذه الجملة كثيرا ما كان يكررها صلى الله عليه وسلم ولا سيما في
خطبه ولذا تجدها مروية بالفاظ مختلفة ونسبت الى مواقع مختلفة ، وقد قال يوم الحج
الأكبر في حجة الوداع التي كانت مشهرا عظيما للمسلمين ، والتي لم يمش على
الله عليه وسلم بعدها الا بضعة أشهر * ولو استعمل عليكم عهد يقودكم بكتاب الله
اسموا وأطيعوا * (مسلم) .

وقال * من خرج من الطاعة وفارق الجماعة فمات مات ميتة جاهلية * وفي لفظ
* فانه ليس أحد من الناس خرج من السلطان شهرا فمات عليه الا مات ميتة جاهلية *
(متفق عليه) ومعلم أن الجاهلية كانت قبل الاسلام ، فمعنى الحديث أنه مبات
على شلالة حرب الجاهلية - والعيان بالله * وفي رواية عبد الله بن عمر رضي الله
عنه * من خلع بدا من طاعة لقي الله يوم القيامة ولا حجة له ، ومن مات وليس في
قلبه بهمة مات ميتة جاهلية * .

وقال * من فارق الجماعة شهرا فكأنما خلع ربة الاسلام من عنقه * (الترمذى)
وفي رواية أخرى * دخل النار * (أخرجهما الحاكم على شرط الصحيحين) .

وقال * كانت بنو اسرائيل تصومهم الأنبياء كلما هلك نبي خلفه نبي وانه لا نبي
بعدى ، وسيكون خلفاء فيكثرون - قالوا فما تأمرنا ؟ قال : أفويحمة الأول فالأول ،
ثم أعطوهم حقهم ، فان الله يمالهم عما استراهم * (متفق عليه) .

وفيه هذا كثير من الأحاديث التي لا تحصى ، وشواهد الإجماع ونصوص كتـب
العقائد والفقهاء لسننا في حاجة اليها بعد الحديث .

فصل

فصل في شروط الإمامة والخلافة

=====

إذا استقصيت نصوص الكتاب والسنة وإجماع الأمة ، تعلم أن الشريعة الإسلامية
اعتبرت الإمامة والخلافة على شكلين متعاضدين ، واحد منهما أهلي ومطلوب ، والثاني
اضطراري .

وبين هذا أن الشكل الأصلي المطلوب هو انتخاب الأمة خليفة لها بحيث تجتمع
 آحادها وأهل الحل والمقد والرأى والبصيرة منها ، فيتباحثون ويتشاورون طبقا للأهنة
 (وأمرهم شورى بينهم) فيسم بفتحهم الخليفة مراعين فيه شروط الخلافة الشرعية
 ومقاصدها الأساسية ، غير ناظرين إلى الوجهة الذاتية والجنسية النسبية ^(١) إذ الشريعة
 تعتبر في الانتخاب شورى الأمة ، لا جنسية الخليفة وعشيرته ونسبه — وقد تأسست
 الخلافة الراشدة على هذا الأساس الجمهورى ، فالخليفة الأول انتخبته الأمة مباشرة
 والخليفة الثانى انتخبه الخليفة الأول ^(٢) ورعى به أهل الحل والمقد من الأمة ، والخليفة
 الثالث انتخبه جماعة الشورى ، والرابع بايعته الجماعة بأسرها — فانتخاب هؤلاء الخلفاء
 الأهنة كان انتخابا شوريا وجمهوريا ، ولم ترع فيه الجنسية والقبلية والمهد البتة ولو
 رعى فيه شئ من هذا القبيل لقيت الخلافة فى بيت الخليفة الأول ولم تخرج منه إلى
 آخر الدهر ، ولكن لم يكن شئ من ذلك ، بل لم يدع الخليفة الثانى مجالا للأهنة
 فى أن تنتخب ابنه خليفة لأنه منع وأوصى بذلك وصية حين — احتضاره — رضى الله
 عنه ورضيهم أجمعين .

فإذا كان الأمر على هذا المنهج الجمهورى واستطاعت الأمة انتخاب خليفة لها
 فقد شرطت الشريعة فيه شروطا تراعى عند الانتخاب .

وأما الشكل الثانى وهو إذا تغلب متغلب بقوته وعصبته على الخلافة ولم يترك
 مجالا للانتخاب فعينه ماذا يجب على الأمة إذا كان المتغلب غير أهل لها وظالمها
 وفاقدا لشروطها ؟ فهل يجب عليها أن تخرج عليه وتقاتله ؟ أم يجب عليها أن تطعمه
 وتنفاد له وتؤدى إليه الزكاة وتقيم وراءه الجمعة والجماعة وتعمل تحت سيطرته سائرا لاهال
 تلقى لا تتم إلا بوجود الخليفة والامام ؟

١ — أى لم يراع فيه إلا شرف نسبا من بيوت قريش التى حصر الوصول الخلافة فى
 جملتها بل يروحون كفاءته من أى بيت منهم كان هو مملوك يمد بأنسها لو جعلت
 ورأية فى بيت معين لقيت فى بيت الخليفة الأول كما هو الشأن فى بيوت الملوك
 إلى عهدنا هذا وضرب له المثل بالخلفاء الراشدين .

فبايعته

٢ — يعنى أنه رضىه والأمة رضيه فبايعته .

لما كانت هذه المسئلة أهم المسائل الحيوية ، وأساس حياة الأمة الاجتماعية لئلا
تكون الشرية لتفعل عنها وتتروك الأمة بلا هداية ولا بصيرة فيها ولذا تجدها قد اهتمت
بها أشد الاهتمام وبحثها - بيانا وافيا بعبارات واضحة ونصوص صريحة ومن أجل هذا
لم يتردد الصحابة رضوان الله عليهم في تعيين مخطتهم لما قامت الخلافة الأموية
الاستبدادية بعد انقراض الخلافة الراشدة ، فعاملوها معاملة واحدة كأنهم كانوا منوها
من قبل ، وصارت تلك المعاملة سنة لمن بعدهم ، واجمعت الأمة على استحسانها ،
واتخذتها حجة اجتماعية لها ، نعم قد اختلف بعض الفرق الاسلامية في الشكل الاول
للخلافة ، ولكن لم يختلف أحد منهم في الشكل الثاني لا قولاً ولا فعلاً .^(١)

وقد شرت الشرية في الشكل الاول الجمهوري شروطاً بالغة في الكمال منها :
وأوجبت على الأمة أن تنتشر في الخليفة كل الأمور التي تلزم لهذا الطب الرفيع
ولهذه المستولية الصليبية . وقد اشتهرت شروط الخلافة هذه اشتهاراً عظيماً حتى انك
تجدها في عامة كتب العقائد والفقه التي يتداولها طلبة العلم نسي المدارس الدينية
فقرى فيها " ويشترط أن يكون الخليفة من أهل الولاية المطلقة الكاملة بأن يكون
مسلماً حراً ، ذكراً ، عاقلاً ، بالغاً ، حائضاً بقوة رأيه ورويته وسموته بأسه ، وشوكته
قادراً بحلمه وعدائه وكفايته وشجاعته على تنفيذ الأحكام ، وحفظ حدود الاسلام
وانصاف المظلوم من الظالم ، حد حدوث المظالم " الخ - راجع شرح المواقف
والنفس والتعبد وشرح الفقه الأكبر للقاري وشرح المقاصد - ومن كتب الحديثيين
شرح عبدة ابن عجيل وشرح الهادي وشرح منظومة الآداب وخلاصة ابن مفلح ^{دليل} ~~وشرح~~
الأوطار ^{دليل} ~~وشرح~~ البرام للشوكاني والافتاح وشرحه وغيرها من الكتب .

١ - اطلاق النفي خطأ فالخلافة وقع قولاً وملاً ذهب كثيرون الى مقاومة المصلحة
الجائرة ونهر الشرية ، وكثيرون الى طاعتها وسباني تحقيقه ، ومارأوا يستعدون
لاسقاط خلافة الأمويين حتى أمسكوها وهي في حق شهابها .

وأما شرط القرشية ففيه اختلاف ^(١) وقد كان يقول به أكثر العلماء والفقهاء السني
ومن الدولة العباسية وبمدها بغير (سنة ٦٤٠ هـ سنة ١٢٤٣ م) لقوله صلى الله
عليه وسلم (ان هذا الأمر في قريش) ولذا ذهب الامامية الى أن الخليفة يجيب
أن يكون من أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم ونقول على القاعدة أن الخلافة
لصلى الله عليه وسلم ثم لائمة المعتره رضوان الله عليهم أجمعين — وذهب الزيدية

١ — يظهر أن للكتاب — عفا الله عنه — ميلا الى انصاف هذا الشرط الذي أجمع
عليه أهل الصدر الأول قبل ظهور الشقاق في الأمة وهم أهل الاجماع الصحيح دون
غيرهم والأحاديث الصحيحة فيه كثيرة متفق عليها وقد ذكر حديثا واحدا منها لم
يقرنه بذكر من خرج من رواية الصحيح وقد صرح الكتب التي ذكرها كلها بشرط
القرشية ولما ذكروا أن الخوارج وبعض المعتزلة خالفوا سائر المسلمين في اشتراط
القرشية ردوا عليها بأن الاجماع كان قد انمقد على ذلك من عهد الصحابة
مستندا الى النص فلا حجة بخلافه .

قال السعد التفتازاني في شرح المقاصد . وشرط أن يكون مسلما
عدلا حرا ذكرا مجتهدا — شجاعا ذا رأي وكفاية سبيحا بصيرا ناطقا قرشيا فنان
لم يوجد من قريش من يستجمع الصفات المثيرة ولي كتاب فان لم يوجد فرجل من
بنى اسمايل فان لم يوجد فرجل من العجم الخ (ص ٢٧١ ج ٢ طبع استانة)
وقال الحافظ في شرح البخاري بعد ايراد الأحاديث في حار الامامة في قريش المؤيدة
لما رواه البخاري منها ما نصه .

* ويؤخذ منه أن الصحابة اتفقوا على افادة المفهوم للحصر خلافا لمن أنكر ذلك والى هذا
ذهب جمهور أهل العلم أن شرط الامام أن يكون قرشيا — ثم ذكر على قهده ببعض قريش كالشيعة
ورأى الخوارج وبعض المعتزلة بعدم اشتراط القرشية وتمقبه بقوله (قال أبو بكر بن الطيب لم يجمع
المسلمون على هذا القول بعد ثبوت حديث الأئمة من قريش * وعمل المسلمين به قرنا بعد قرنين
وانمقد الاجماع على اعتبار ذلك قبل أن يقع الاختلاف (ص ٥٨١ ج ٢٩ طبعة الهند)

ثم ذكر الحافظ ما رواه أحمد عن عمر بن ميلة الى استخلاف ابي عبيدة وهو غير قريش أو معاذ
بن جبل وهو أنصاري وجمع بينه وبين نقلهم للاجماع باحتمال أن يكون رجح عن ذلك أو يكون الاجماع
قد انمقد . بمذهبه . والصواب أن أبا بكر قد احتج على الانصار — وعمر بظاهره — بحديث حاصر
الأئمة في قريش فاذعنوا ولم يعارض فيه أحد منهم ولا من غيرهم فانمقد الاجماع من ذلك اليوم وكفى
هذا اعلا لا لرواية قول عمر أنه كان يحب أن يستخلف أحد الرجلين . وهل يوجد شيء يسرد
به أثر آحادى أقوى من هذا الاجماع وهذه النصوص المتفق عليها ؟ =

الى أن الخلافة في بني فاطمة كلهم ولا خصوصية فيها لائمة أهل البيت فالامامية
تتوسط في الخليفة مع سائر الشروط المذكورة آنفاً ، أن يكون من أهل البيت النبوي ،
والريدية توسع فيها وتقول كل بني فاطمة أهل للخلافة وهم يستحقونها دون غيرهم .
ولا تمنع أن هذا الاختلاف في الشكل الأول . أما في الشكل الثاني — أي اذا
لم تقدر الأمة على انتخاب الخليفة لتغلب المتغلبين — فلا خلاف فيه بين المسلمين
لكثرة الأحاديث الصحيحة واجماع الصحابة وائمة أهل البيت في هذا الباب ولذا ترى
الأمة قد اتفقت كليتها على أنه اذا استولى مسلم بقوته وشوكته وعصبته على الخلافة وتمكن
فيها وقامت حكومته وقوى أمره وجب على الأمة أن تطيعه وتسمع له وتخضع لخلافته مثل
مالو كان أصابها بحق ، ولا يجوز لأحد الخروج عليه والقيام على وجهه ، ومن يفصل
ذلك بقاتله المسلمون ويحبون الخليفة عليه ، مهما كان الخارج إذا قبل وصلاحه وأهليه
لأنه مفارق للجماعة وخارج على السلطان (١)

= وذكر الحافظ قبل ذلك ما أورده على حديث " لا يزال هذا الأمر في قريش
ما بشى من الناس اثنان " على القول بأنه خبر مضعف من أنه تولى أمر المسلمين كثير
من غير قريش وأجاب عنه أولاً بأن تولى هؤلاء لم يمنع وجود ائمة من قريش في اليمن
والعرب وغيرهما وأن بعض أولئك كان يدعى القرشية كبنى عبيد ثم قال " وأما سائر
من ذكركم ومن لم يذكر فمهم من المتغلبين وحكمهم حكم البغاة فلا عبرة بهم (قال)
وقال القرطبي هذا الحديث خبر عن المشروعة أي لا تتمتع الامامة الكبرى الا لقريش
مهما وجد منهم أحد ، وكأنه جنح الى أنه خبر بمعنى الأمر وقد ورد الأمر بذلك
في حديث " قدموا قريشا ولا تقدموها " أخرجه البيهقي ، وذكر له شواهد مسند
الصالح وغيرها (ص ٥٨١ ج ٢٩ أيضا) .

(١) حكاية الاجماع باطلة كما أشرنا اليه في حاشية سابقة وان الحافظ ابن حجر
قال انهم يحدون — المتغلبين على الخلافة من البغاة الخارجين على السلطنة
الاسلامية مزبد بيان لذلك .

هذا هو حكم الشريعة في هذه الصورة ، وحكمته واضحة جليلة ، وهي أن قيام الشريعة وبقاء الأمة يتوقف على الحكومة القوية . إذ هي أساس للحياة الاجتماعية وقصد جعلت لها الشريعة نظاما في غاية من الكمال والجودة ، فتولت للأمة حق انتخاب الأمير وجعلت الشورى أساسا للانتخاب ، وشرطت — شروطا في الأمير ولم تعتمد نفس الامارة على امتيازات الجنس والعصبة والملوكية — بل جعلتها حرة وجمهورية محدثة لا يشوبها الاستبداد والاضطاد ابدا ، ثم حذرت الناس من أن يتصدوا لها ويرشحوا أنفسهم لأجلها ، وينافسوا فيها ويتظلموا اليها ، فيقاتلوا ويحاربوا عليها ويفكسروا الدماء في سبيلها — وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبأج الناس على هذا فيقول " لا ينافع الأمر أهله ^(١) " هذه كلمة صغيرة في ظاهرها ، كبيرة في ذاتها وكافية لإبطال الحروب والمنازعات بأسرها . وقد بوب البخاري في صحيحه عليها بساها فقال " باب ما يكره من الحرص على الامارة " وروى فيه حديث أبي موسى الأشعري قال . قال النبي صلى الله عليه وسلم " أنا لا نولي هذا الأمر من سأله ولا ممن حرص عليه " وكان القوي من هذا التحذير واليمن لأن الناس اذا لم يحرموا عليها سهل للامة انتخاب الأصح والأهل لها .

هذا هو النظام الحقيقي الذي جعلته الشريعة للخلافة الاسلامية ولو بقى محمولا به لصلحت الدنيا كلها ولكن النبي صلى الله عليه وسلم كان يحلم بأنه لا يدوم أكثر من ثلاثين سنة فمن للأمة ما يجب عليها عندما ينهدم ذلك محل محله الاستبداد والقهر .

لنفحص المسئلة فحدا جيدا ، لنرى أية خطة أحسن عند تغلب المفسدين على الخلافة ، فان هنا خطتين (احدهما) أن يقبل الاستبداد ويخضع له صيانة للجماعة وحفظا لنفوس الأمة وذودا عن البلاد الاسلامية من الأعداء وصونا لأوامر الشريعة من التحليل وغيرها كثير من المصالح العامة ولا تنح أن هذه الحكومة وان كانت مستبدة قاهرة الا أنها اسلامية تنار على الدين وترفع شأن الامة في نظر الأعداء ، ونقسم

١ — يتأمل كلمة أهله وما يراد بها شروطا هل يمكن أن يكون منها المظالمون المستبدون ؟

انه تنشأ عن هذا مقاسد كثيرة (١)

وأما الخطة الثانية فهي أن يقاتل المتشلب ويخرج عليه وترد الخلافة الى من هو أصلح لها منه ولكن اذا فعل ذلك جرت الدماء انهارا في حروب تشيب من هولها الولدان ، واختلت المصالح العامة ، وتزلزلت الهيئة الاجتماعية ، وبطل الأمن وعتت القوضى وتمطلت أوامر الشريعة وهدمت الجوامع ، ونهبت البيوت ، وغربت البلاد ، وانصببت على رأس الأمة المنائب ، وأصابها كل ما يصيب الأمم في مثل هذه المحسروب التي تثيرها الأهواء والشهوات . ومع هذا لا يحرف متى يستتب الأمن وتمود الراحة ؟ ان كل صاحب عصبية وذو مصالح كبيرة ينهض قائلا : أنا أحق بالخلافة من صاحبها فعلى الناس أن — يهايموني ومقاتلوا في صفى وينصرونى على عدوى . فماذا تكون حال الأمة ان ذاك ؟ ألا تكون كالريشة في صهب العواصف تقلبها الرياح كيف شاءت ؟ أولا تصبح كسفينة في بحر محيط لا ريان عليها ، تتقاذفها الأمواج بدفسة ومصرة فتعلو تارة وتسفل أخرى ويغشى عليها الخرق كل آن ؟ ولا ينكر أن مع هذه المخاوف والأهوال يحتمل أن ترد الخلافة الى الأصلح لها ، فأى صورة أحق أن ترجحها الشريعة الفراء ؟ ألك التي مصالح الأمة فيها مصونة مضمونة ، والمقاسد محتلمة ؟ أم هذه التي ^{يكون} الخراب والدمار فيها محققا ، ورد الحق الى أهله محتلملا ؟

كل من له أدنى حظ من العقل الصحيح لا يتردد في الجواب بأن الصورة الأولى أحق أن تقبل ويعمل عليها في مثل هذه الحالات ، وقد فعلت الشريعة ذلك جريا على قاعدة " المنافع تجلب والمضار تدفع " واذا اختلطت المصالح والمقاسد تختار الشريعة طريقا أقل مضرة وأكثر مصلحة وترجح أهون الشرين ، ان لو لم تفصل

١ — أكثر هذه المقاسد على جرثومتها أن الأمر يجرى على القوة لا على الشريعة وأى حاكم تخضع له الأمة خضوعا أعى ثم يقف عند حدود الحق والعدل فلا يتعداها على علم ولا عن جهل .

٢ — الصواب أن هذا من لوازم الخضوع لكل قوى يتغلب ان لو كان أصحاب هذه المطامع يعلمون أن الأمة انما تخضع للحق لا للقوة وانها لا تزال تقاتل المستبد الخارج حتى يهلك أو يهلك لما خرج عليها خارج ولا تغلب مستبد ظالم وكلام الاستاذ أبى الكلام هنا متمسكاً بمتدافع ومعضوما فقرة من صور المسألة غير متعين الوقوع بل نادر ومقاومة الظلم والاستبداد وتغيير المنكر فرض لازم ، ولكن يراعى في تنفيذه ارتكاب أخف الشرين عند التعارض . =

ذلك وغرقت على الأمة عدم الخضوع لأحد سوى جامع شروط الخلافة والمنتخب على الطريقة الجمهورية الصحيحة لقام كما قلنا كل من اتخذ الهه هو ان لثيل الخلافة وقال هذا الخليفة ليس بأهل وأنا أحق منه وأجمع للشروط — ثم ماذا بعد ذلك؟ القتل والصلب وأهراق الدماء وزهق النفوس وانهدام الهيئة الاجتماعية وتزعزع أركان الأمة • فمن كان يحافظ على — البلاد ويحكم بين العباد ومقاب المجرمين ويحصد السراق وقطاع الطرق ويأخذ الزكاة ويقيم الجمعة والعديد ويدافع عن الثغور ويرابط على الحدود ؟

ولهم الله لو كان كذلك لتداعت الأمم الاكالة على المسلمين ولاحتلت بلادهم وخفدت شوكتهم واستعبدتهم وأذللتهم وفعلت بهم ما فعلت • قبول خلافة المقتلب أحسن وأهون • أم هذا الخراب والدمار الذي ليس فوقه خراب ولا دمار ؟ ولذا أمرت الشريعة بطاعة الخليفة المسلم مهما كان ظالما ومستبدا وكهنا كانت سيوته مالم يأمر بمعصية الله • وما أقام الصلاة — والله تعالى أعلم بما يأمر وهو بصير بمصالح العباد

فصل

(نصوص السنة واجماع الأئمة)

=====

من يلقى نظرة سطحية على الأحاديث النبوية يرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يخبر بما سيكون في المستقبل من انقلاب الحال وتغير الناس • ويبين لكل حالة وكل دور علائم وآيات • ويرسم للأمة خطة تناسب كل وقت وزمان • وان هذا لمن أكبر الأدلة على صدقه وصدق نبوته • ان كل ما أخبر به جاء كخلق الصبح • وان كان الناس لا يصدقون بذلك فبأي دليل يثبتون ما جرى في الزمان الغابر • فكل أحد يستطيع أن ينكر حينئذ وجود الاسكندر المقدوني والدولة الرومانية • بل نابليون وحرب واترلو •

الكاتب يفرض صورة للتمارض بين الحق والتغلب لا تطرد بل قلما تقع وجعلها قاعدة للترجيح • ان مجموع الأحاديث الواردة في الامامة والامارة تدل على أمور يميز أن تجدها مجموعة في مكان واحد فتجمع بها بين ما يتراءى لك فيها من التمارض =

قال : " لا ما أقاموا فيكم الصلاة ، الا من ولي عليه وال فرأه يأتي شيئا من محبة الله فلهكم ما يأتي من محبة الله ولا ينزعن يدا من طاعة " (رواه أحمد ومسلم)

وعن حذيفة قال : قال صلى الله عليه وسلم " يكون بعدى أمة لا يهتدون بهدي ولا يستنون بهنقى ، وسبقهم فيكم رجال قلوبهم قلوب الشياطين في جحشان أنس قال : قلت كيف يا رسول الله ان أدركت ذلك ؟ قال " تسمع وتطعم وان ضرب ظهرك وأخذ مالك فاسمع وأطع " (أحمد ومسلم) .

وقال صلى الله عليه وسلم " ستكون بعدى أمة وأمر تنكرونها — قالوا فمسا تأمرنا ؟ قال تؤدون الحق الذى عليكم وتسالون الله الذى لكم " (متفق عليه عن ابن مسعود وأخرجه أيضا الحارث بن وهب وأورده الحافظ في التلخيص) .

وعن جابر بن عبدك مرفوعا عند أبي داود بلفظ " سيأتىكم ركب يهتدون فسادا أتوكم فوجهوا بهم وغلوا بينهم وبين ما يهتدون فان عداوا فلا تلتصم وان ظلموا فاصلهم " وعن وائل بن حجر قال " سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ورجل يسأله فقال أرايت أن كان عليا أمرا يهتدونا حقنا وسألونا حقهم ؟ " اسمعوا وأطيعوا فانما عليهم ما حملوا وعليكم ما حملتم " (مسلم والترمذى وصححه) .

قال صلى الله عليه وسلم " على المرء المسلم ، الصبر والطاعة فيما أحب وكسره الا أن يجر بمحبة ، فان أمر بمحبة فلا سمع ولا طاعة " (أخرجه الشيخان وغيرهما عن ابن عمر) — ان لا يحمى الله ، فاقى السموات والأرض فى شئ منها صغر وقسل لمخلوق منها كبر وعظم ولترفع شأنه — وان هذا ما قاله الاسلام وجميع الأديان وكل للمعقلاء والمحكماء .

ولذا أمرت الشريعة بأداء الصدقات والزكاة الى الحاملين عليها ، مهما كانتهم سائمة وفسقة وفحولة ، ولا يجوز منعها عنهم لأجل ذلك — نعم يجوز السعى عند الامام فى عزلهم ولكن ماداموا على عملهم لا يجوز منع الزكاة عنهم لكلا يفتل نظام الأمة — كما فى رواية بخير بن عاصم انه قال قلنا " ان قوما من اصحاب الصدقة قد يمتدنون

عليها أفنكتكم من أموالنا بقدر ما يمتدون عليها ؟ فقال " لا " (قال أبو داود رحمه
 عهد عن محمد) وفي رواية سعد ابن أبي وقاص قال " أدفعوا إليهم ما صلوا " وروى
 ابن أبي شيبة أنه قال رجل لابن عمر " إلى من تؤدي الزكاة ؟ قال إلى الأمراء ، فقال
 الرجل " إذا يتخذون بها ثيابا وطيحا " قال وإن فعلوا ذلك أد إليهم الزكاة !

ولذا ترمي أصحاب الحديث " باب براءة رب المال بالدفع إلى السلطان مع
 المدل والجور " (كما في المنتقى) ومنه قال جمهور الفقهاء وأئمة أهل البيت • كما
 نقل عن الإمام الباقر عليه السلام في الأصول وإلى هذا ذهب المحققون من الإمامية
 والزيدية (١) •

(١) قال الحافظ في شرح حديث البخاري في المبايعة على السج والطاعة الذي تقدم في
 الأصل ضد قوله فيه من كتاب الفتن " وإن لا تنازع الأمر أهله " أي الملك والامارة
 ثم ذكر زيادات في الحديث من روايات أخرى منها " وإن تقوم بالحق حيث كان
 لا يخاف في الله لومة لائم •